كبير

1160
١١٦٠

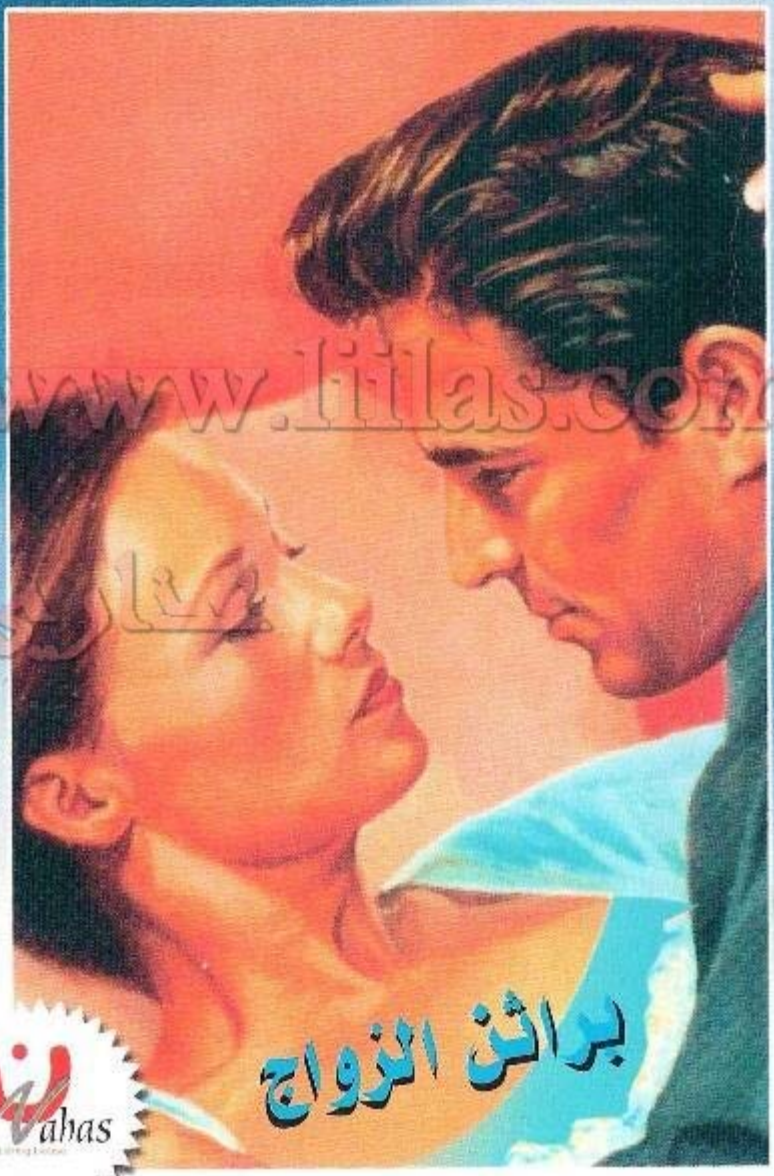

براثن الزواج

www.liilas.com

Nahas

صادر عن دار م. النحاس

براثن الزواج

جنيفر ياين، فتاة تعيش الفقر والعذاب بعد وفاة والديها. لكن الحظ تبسم لها حين عرض عليها مشروع زواج من رجل سيرث مزرعة كبيرة في حال تزوج واستقر.

وهكذا دام زواج المصلحة الذي لم تفطن له افراد الاسرة الى ان وقعا بحب بعضهما بشكل جدي اثر حادث تعرض له زوجها جاك.

www.liilas.com

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم
السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

براثن الزواج

كانت الصحيفة موضوعة على الطاولة فتناولتها جنيفر وراحت تتفحصها بعين يائسة. ومرة اخرى وقع نظرها على ذلك الاعلان.

«عرض لفتاة شقراء، وظيفة تؤمن لها استقرار مادي طيلة حياتها. يجب ان تكون حافظة سر ومطيعة ووديعة، تقبل الطلبات لمن تبدي استعدادها لتحمل اعباء الاسرة.»

امسكت الصحيفة وهبطت السلالم بسرعة وتوجهت الى حيث الهاتف. وبيدين مرتجفتين اضطرت ان تدير الرقم ثلاث مرات قبل ان تنجح. وبصوت عديم الثقة طلبت موعدا فأعطاها المتلكم عنوانا قبل ان يقفل الخط بقوة.

www.liilas.com

الفصل الاول

بيدين مرتجفتين فتحت جنيفر صفحة الاعلانات في صحيفة محلية وراحت تبحث عن الاعلان الذي اثار مناقشات حماسية في المكتب حيث تعمل. وكان ذلك اثناء فترة الغداء. واذا بعينيها تحدقان باعلان كتب بالحروف السوداء العريضة. وتذكرت المشهد حين صرخت جوي، احدى الموظفات عندما قاطعت الحديث وقالت والدهشة تملأ وجهها: «آه! شيء لا يصدق! انظروا الى هذا الاعلان، هنا فوق، في اعلى الصفحة.»

انزعجت يولا فيكرز من هذا التصرف الوقح وهزت كتفيها وقالت بلهجة لاذعة وناعمة:

«هل يجب عليك ان تقاطعينا كلما قرأت اعلاناً عن حفلة موسيقية صاخبة؟»

اجابت جوي قائلة:«تبا لموسيقى البوب الصاخبة! في كل حال، لا يمكنك ان ترشحي نفسك، فالمطلوب فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين.»

سألت يولا ببرود:«ترشيح نفسي؟ ولأي سبب؟»

اطلقت جوي زفرة انزعاج وقالت:«لهذه الوظيفة!

لكن مهما كان الامر فالوظيفة لا تناسبك.»
وبفضول قوي اقتربت بقية الفتيات سألا معاً:«ما القضية؟»
ناولتهن جوي الجريدة وقرأت احداهن بصوت ساخر الاعلان الذي يقول:
«عرض لفتاة انكليزية، شقراء وحسب، وظيفة تؤمن لها استقرار ماديا طيلة حياتها. يجب ان تكون حافظة سر ومطيعة ووديعة، تقبل الطلبات لمن تبدي استعدادها لتحمل اعباء الاسرة. ولأخذ موعد، الاتصال برقم الهاتف اعلاه.»
بعد الدهشة، دوت قهقهة عامة داخل المكتب. واكدت احدى الفتيات قائلة:«في ايامنا هذه، هذا النوع من الاعلان لا يمكنه ان يخدع اي فتاة مهما كانت. لا شك ان صاحب الاعلان فقد عقله.»
قالت يولا:«هذا رأيي، أنا ايضاً. ربما يعتقد انه بامكانه شراء كل ما يريده بالمال. ربما كان صاحب الاعلان مهووسا يبحث عن فتاة شقراء ليجدد حريمه.»
اجابت فتاة اخرى:«لا، انها مزحة، حتى الهووس لا يمكنه إن يجهل ان نساء اليوم لسن ساذجات خصوصا في لندن.»

الضحك يعلو من جميع الاطراف. وجوي الحالمة كانت تحدق في جنيفر بامعان ثم قالت:«لا اعرف. ربما جنيفر تتمتع بهذه المواصفات.»
كانت جنيفر مسترسلة في افكارها، فلم تلتقط من الحديث الجاري سوى القليل. فاهتمامها من نوع آخر، اذ كانت تتساءل بقلق كيف ستتمكن من دفع المصاريف الباهظة التي تفرضها عليها دار الحضانة حيث وضعت أختها الصغيرة ديانا.
وكانت مديرة دار الحضانة قد اعلنت لجنيفر صباح اليوم قائلة:
«اني آسفة حقا يا آنسة هاملتون. نحن مضطرون ان نزيد عليك التعرفة كل اسبوع، وذلك ابتداء من الاسبوع المقبل. انت تعرفين ان الاسعار ترتفع في جميع الميادين. انه التضخم المالي. هذا يؤسفني لكنه اصبح لا بد منه.»
وخلال يوم بكامله كانت جنيفر تطرح على نفسها الاسئلة المختلفة. اين ستجد هذا المبلغ الاضافي؟ الم يسبق ان خفضت مصاريفها الى أدنى درجة خصوصا في ما يتعلق بالغذاء؟ كانت تبدو سريعة المرض من شدة نحول جسمها، وكانت تتلقى الانتقادات بهذا الشأن من معظم العاملين معها.

www.liilas.com

فجأة تنبهت جنيفر الى ما يدور حولها، فقد ران الصمت بعد ملاحظة جوي. وشعرت بثقل النظرات الموجهة اليها، اذ يبدو انهن ينتظرون ردها.

«كيف؟ عما تتكلمين؟ المعذرة، فلم اكن اصغي.»

لم يرد احد، باستثناء يولا التي هزت كتفيها واكتفت بالتذكير قائلة:

«ربما انت على حق، يا جوي. قيل لي، انه في الاسبوع الماضي، لبت جنيفر دعوة هذا الرجل الجذاب الذي يدعى جايسون.»

احمرت خداً الفتاة واعلنت بصوت يرتجف غضبا:«ولم لا؟ لقد امضيت برفقته سهرة ممتعة، وبرهن السيد جايسون عن لطف كبير في ان يدعوني الى منزله.»

قالت لورا باستغراب:«تسمين ذلك لطفاً! كانت تجول في رأسه افكار مختلفة. لا اعرف كيف تصرفت معه، لكن بالنسبة اليه، كان لقاؤكما خيبة واخفاقا، حتى انه صرح في اليوم التالي انه للمرة الاولى في حياته يحتار في معاملة امرأة من هذا النوع المتحفظ.»

احست جنيفر بقنوط وجرح شعورها لسماع

ضحكات زميلاتها في المكتب، ضحكات ساخرة، هازئة. ولما بدأت الفتيات بالاستعداد لممارسة عملهن من جديد بعد استراحة فترة الغداء، اقتربت منها اكبرهن سنا وقالت:«لا تتوتري لهذه الامور التافهة. ربما انك ما تزالين ساذجة، لكن هذه البراءة التي تتحلين بها هي مصدر قوتك.»

انها الآن في بيتها وعيناها مسمرتان في الاعلان وشعرت بالاشمئزاز لتذكرها ذلك الحوار الذي جرى ظهر اليوم في مكتب عملها. وفجأة، نسيت كل شيء اذ بدأت ديانا بالبكاء. اسرعت جنيفر نحو سرير الطفلة لتؤانسها بسرعة لئلا يعلو صراخها وتزعج الجيران. كانت اسنانها تبدأ بالبروز ولا شيء يسكن آلامها وخصوصاً في الليل.

حملت الطفلة وراحت تذرع الغرفة ذهابا وايابا، تؤرجحها وتتحدث اليها وشوشة. ولحسن الحظ خفت حدة صراخها هدأت الطفلة، غير ان جنيفر استمرت في المشي لكن ببطء خشية ان تعود الفتاة الى الصراخ وتقلق راحة.

وعادت بها افكارها الى الماضي الى قبل سنة، الفترة السعيدة حيث كان مستقبلها يبشرها

www.liilas.com

بشتى الاحلام الجميلة. ولم يبق من هذه السعادة الماضية الا ذكرى بعيدة.

وراحت تتخيل تلك الليلة عندما جاءت والدتها في المساء لتخبرها بقليل من الانزعاج والخجل:

«جنيفر، والدك وانا لدينا خبر سعيد نريد ان نزفه اليك.»

«وما هو؟»

كانت جنيفر في هذه اللحظة تقرأ اعلان في احدى الصحف المحلية، بعدان نالت شهادة السكريتاريا بتفوق. فقالت لها والدتها:

«ضعي هذه الصحيفة جانبا، يا حبيبتي، واصغي اليّ بامعان.»

رفعت جنيفر عينيها ولاحظت ملامح والدها المنفعلة، فوضعت الصحيفة جانبا وسمعت والدتها تقول لها:«لدى والدك شيء مهم يريد ان يفصح لك به.»

قال الوالد للوالدة:«لا، قوليه انت.»

«لا، انت.»

نهضت جنيفر من مقعدها وقالت باستغراب:

«آه! عليكما ان تقررا من منكما سيعلن النبأ، او ربما بالاحرى يمكنكما ان تعلناه معا.»

وهذا ما فعلاه. اعلنا بصوت واحد، مليء بالفخر.

«اننا ننتظر مولوداً جديداً.»

وبذهول حقيقي، حدقت جنيفر فترة طويلة في والديها، كأنهما آتيان من كوكب آخر. كانت عائلتهما الصغيرة المؤلفة من ثلاثة اشخاص على قدر واسع من الانسجام والاتحاد، وظلت على ما هي مدة تسعة عشر سنة وهي الآن مندهشة اذ تراها تتسع لمخلوق جديد آخر. لكنها سرعان ما ندمت على انفعالها الاناني لمجرد رؤية خيبة الامل ترتسم على وجهي والديها فأسرعت بالقول لتطمئنهما:«هذا خبر رائع! حلمت مرارا ان يصبح لي اخ او اخت.»

تنفست والدتها الصعداء واطلقت زفرة بكاء وفرح.

فامسك والدها بكتفي زوجته وضمها اليه بحنان وقال:«ألم اقل لك انها ستستعد للخبر.»

غير ان هذا الفرح بدأ يتخلله بعض القلق، في الاشهر اللاحقة. واصبحت والدتها تزور الطبيب مرات عديدة كلما اقترب موعد الانجاب. حتى افصح الطبيب مؤخرا عن تخوفه من خطورة الوضع.

ولما حان موعد الانجاب، انتظرت جنيفر مع والدها في قاعة الانتظار في المستشفى ساعات

www.liilas.com

طويلة والهم يكبرهما. اخيرا جاء الطبيب عابس الوجه واعلن الخبر الرهيب.

«اني آسف، يا سيد باين ويا آنسة جنيفر، جهدنا باء بالفشل. لكننا تمكنا من انقاذ الطفل.»

لم تنسا جنيفر ابداً تعبير وجه والدها الكئيب الذي ارتسم في هذه اللحظة. وظل اسابيع طويلة بعد وفاة زوجته في حال تشبه الخمول، يرد بالرغم منه على اسئلتها. وبعد فترة غير بعيدة جاء شرطي ليعلمها بأن والدها قتل في حادث سيارة.

لم تسنح لها الفرصة للحسرة والحداد اذ ان ديانا الصغيرة كانت بحاجة الى عناية واهتمام في كل لحظة.

وبدأت المشاكل تنهمر عليها. فاضطرت الى ان تبيع المنزل ومحطة الوقود حيث عمل والدها سنوات عديدة، لتفي الديون المتراكمة، ولم يبق معها الا المال الكافي لتسديد المصاريف الضرورية، الى ان وجدت غرفة صغيرة استأجرتها ودار حضانة لديانا قرب مركز عملها، وهذا لم يكن باختيارها بل اضطرت الى قبوله، لأن الحاجة المادية بدأت تهدد استقرارها.

وضعت جنيفر ديانا في سريرها. ثم جلست على

الكرسي امام الطاولة وراحت تقوم بحسابات المصاريف المتوجبة عليها.

وخرجت بنتيجة صعبة، اذ عليها ان تخفف مصاريفها الى ادنى درجة لتتمكن من دفع اجرة دار الحضانة. منذ الآن لن تذهب عند المزين، ولن تستعمل ادوات الزينة وستصلح احذيتها قدر امكانها حتى لا تحتاج الى شراء حذاء جديد. ولحسن حظها، فشعرها الاشقر الطويل مجعد بشكل طبيعي وليس بحاجة الى شامبو خاص به.

لكن لا يمكنها ان تحرم نفسها من الشوربا وسندويش الغداء، وإلا لما تمكنت من التركيز. ورغم ذلك يشكو مديرها من النسيان الذي اصابها اخيراً وهي تعرف ان ذلك عائد الى سوء تغذيتها البسيطة والزاهدة.

حالمة، وجهت نظرها باتجاه ديانا. وبفخر راحت تتأمل فرحة، خديها البارزين الحمراوين وجسمها الممتلىء وتبتسم. فجأة عبست لدى سماعها صراخ الطفلة المتألمة. وبعد بضع لحظات دوى صراخها في ارجاء الغرفة.

«آه، لا! عادت الى البكاء من جديد!»

تناولت جنيفر اختها بين ذراعيها لكن الطفلة

www.liilas.com

لم تتوقف عن البكاء. ولم تكف عن الصراخ الا بعد ربع ساعة، بدت لها دهرا طويلا. وكانت تهم بوضع الطفلة في السرير من جديد حينما سمعت طرقا على الباب، فتحت جنيفر الباب وامام العتبة وقفت صاحبة.

تلعثمت جنيفر وقالت في حيرة وارتباك:«انا متأسفة يا سيدة كولينز.»

اعلنت صاحبة البيت بصوت قاطع:

«انا كذلك، يا آنسة هاملتون. عليك ان تغادري هذه الغرفة خلال اسبوع من الآن. لقد تحملت الكثير، لكن الامر لم يعد يطاق ولا يمكنه الاستمرار. جارك ينزعج من بكاء الطفلة المستمر ويهدد بالذهاب. انا آسفة، صدقيني، لكن سأضع هذه الغرفة برسم الايجار ابتداء من نهار السبت المقبل.»

ادارت ظهرها وولت تاركة جنيفر مندهشة. اغلقت الباب بهدوء. الآن ديانا نائمة بسلام. نظرت جنيفر بامعان وحنان الى وجه اختها البريء فاغرورقت عيناها بالدموع واسرعت تضعها في السرير. ثم جلست الى طاولتها وخبأت وجهها بين ذراعيها وراحت تبكي، تاركة العنان لحزنها. لقد صبرت كثيرا خلال هذه السنة الاخيرة وبات

حزنها لا يحتمل. فحتى الآن جابهت الامور بشجاعة، لكنها اليوم تبوح بفشلها.

في احد الايام، اقترحت عليها يولا ان تضع الطفلة في دار الايتام. لكن تلك الفكرة كانت ترعبها. اما الآن فلا بد لها من الرضوخ للأمر الواقع فهي ترى ان هذه الفكرة هي الحل الاخير لمشاكلها.

وببطء رفعت رأسها وراحت تنظر في ارجاء الغرفة ذات الاثاث الحقير. بساط بال ومقاعد مهترئة وسرير ومغسلة وغاز صغير. لكن بالرغم من مأساتها كانت تمثل هذه الغرفة كل استقرارها، اذ كانت ملجأها هي وديانا... لا يمكنها ان تقتنع بضرورة التخلي عنها انه اسوأ الحلول. ورفضت هذه الفكرة بقوة اليأس.

كانت الصحيفة موضوعة على الطاولة فتناولتها جنيفر وراحت تتصفحها بعين يائسة. ومرة اخرى وقع نظرها على ذلك الاعلان الغامض. فجأة توقفت على جملة تحتوي على تقبل الطلبات للواتي يتحملن اعباء الاسرة.

امسكت الصحيفة وهبطت السلالم بسرعة وتوجهت الى حيث الهاتف. وبيدين مرتجفتين اضطرت ان تدير الرقم ثلاث مرات قبل ان

www.liilas.com

تنجح. وبصوتٍ عديم الثقة طلبت موعداً فاعطاها المتكلم عنوانا قبل ان يقفل الخط بقوة. ظلت مسمرة النظر في الاعلان حيث كتبت مسرعة: الموعد: السبت الثانية والنصف ظهراً في فندق امبريال.

يعني ذلك نهار الغد.

* * *

لم تشعر بأي حيرة لاختيار ملابسها لأنها ارتدت المجموعة الانيقة الوحيدة التي تملكها. انها كناية عن تنورة وسترة، ذات لون بني غامق، يناقض بشرتها الفاتحة ولون شعرها الطويل الذهبي الذي ينسدل امواجا على كتفيها. وارتدت تحت السترة قميصا بلون الكريم. غير انها قطبت حاجبيها عندما نظرت في المرآة. لا شيء في هذه البزة الكلاسيكية يلفت الانظار. واذا صدق ما قالته زميلاتها من ان صاحب الاعلان ليس سوى ثري مضجر، سيكون حظها قد خانها.

«اللواتي يتحملن اعباء الاسرة.» بقيت هذه الكلمات تدور في خاطرها. اذا كان الرجل ستلتقي به يفي بوعده واذا حصلت على هذه الوظيفة الغامضة، ستضمن مستقبل الطفلة.

القت جنيفر نظرة الى ساعتها. لم يبق لها سوى عشرين دقيقة للوصول الى الفندق. ستصل سيارة التاكسي في أي لحظة الآن. وبعدما نظرت مرة اخرى الى المرآة، حملت حقيبة يدها وعلقتها بكتفها وهبطت السلالم. توقفت ا لسيارة امام باب فندق امبريال الرئيسي. وكانت مبكرة فتوجهت الى مكتب الاستقبال بانفاس متقطعة من شدة الانفعال. طلبت ان يصار الى اعلام صاحب الاعلان بحضورها. كان الموظف يراقبها خلسة. فجأة اشتعل وجهها احمرارا، لانها انتبهت انه لا شك بان موظفي الفندق على علم بسبب وجودها هنا. وخلال بضع دقائق بدت لها طويلة، جاء صبي الفندق وطلب منها ان تتبعه. شعرت بقدميها ترتخيان فجأة، لكنها تمكنت من عبور البهو المفروشة ارضه ببساط واسع مزين بألوان ورسوم فنية. ولما انفتح باب المصعد من دون احداث ضجة، خيل اليها انها تغادر العالم المتزن الواضح، لتدخل عالما آخر، غريبا ومروعا. انها تنتمي الى عالم حيث لا يمكن لأي انسان ان يخطر في باله شراء انسان حي، حسب ما يمكن للاعلان ان يفصح عنه. فهناك وعد بالاستقرار طيلة حياتها وبالتالي فهي

www.liilas.com

اسيرة سجن ذهبي. لكن ماذا سيحصل في مقابل ذلك؟

الالم يضغط على حنجرتها وهي تحاول جاهدة ان تنطق من دون جدوى. الطريق تمر امامها وهي عاجزة ان تطلب من صبي الفندق ان يعيدها الى المدخل. توقف المصعد وخرج الصبي امامها. تبعته وقدماها تدوسان على البساط الازرق السميك بينما كانا يتوجهان نحو الغرفة المنشودة. تلعثمت وهي تفتش في حقيبتها عن بعض المال:«شكرا.»

لكن صبي الفندق رفض الاكرامية وعاد ادراجه نحو المصعد بعد ان رمقها بنظرة ازدراء. مدت جنيفر يدها لتطرق الباب، ثم عدلت في اللحظة الاخيرة. وفجأة تذكرت حكايات تجارة الرقيق التي تداولتها رفيقاتها في العمل. قصص الفتيات اللواتي يلبين مثل هذه الاعلانات ومصيرهن الاسود. همست لنفسها وهي تهز قدميها اضطرابا:«جنيفر هاملتون، انت حقا مجنونة! لماذا تجازفين بنفسك؟ لا شك ان هناك وسائل اخرى للخروج من وضعك المالي. في ايامنا هذه، من المستحيل ان يسمح للناس ان تعيش من دون سقف. فالمساعدة الاجتماعية موجودة

حقا غير انها استاءت لفكرة وضع ديانا في دور الايتام. وبعد تردد طرقت الباب. وفي الحال فتح الخادم ودعاها الى الدخول بلياقة كبيرة. كانت الغرفة واسعة واثاثها فاخرا. فعادت انفاسها تتقطع. مقاعد مريحة وطاولة مستديرة موضوعة فوق سجاد ابيض سميك. ولوحات ونحوت ومرايا ذات اطارات مذهبة وكلها تزين الجدران المغلفة بالقماش الازرق الفاتح. وبالرغم من الشمس التي تخترق اشعتها الزجاج الواسع، اكتشفت جنيفر بدهشة وجود مدفأة يشتعل داخلها الحطب الكبير.

اقتربت بخطى مترددة وتوقفت امام احدى المقاعد بينما توارى الخادم عن الانظار. تقلصت جنيفر لا تعرف بماذا تفكر. لكنها شعرت بالارتياح وهي ترى رجلا عجوزا يدخل الغرفة ويقول:

«آنسة باين؟»

كان صوته رنانا مع لكنة خفيفة. فعرفت انه فرنسي وخصوصا عندما سمعته يسأل بتهذيب رفيع وعزة نفس ويقول:«هل تتفضل الآنسة بالجلوس؟»

جلست جنيفر في المقعد وراحت تتأمل وجه هذا العجوز وملامحه النبيلة والرفيعة. وتمكنت جنيفر

www.liilas.com

من ان تقرأ في عينيه قليلاً من الاستغراب، غير ان فمه يعبر عن عطف وتسامح. وفكرت في أن شعره الابيض لا شك انه كان في الماضي اسود. غير انه ما زال يحافظ على قامته الطويلة ورشاقة رجل شاب.

انتظرت جنيفر منه ان يتابع كلامه. وبدأ خوفها وقلقها بالانحسار رويدا رويدا عندما لاحظت انه يبحث عن الكلمات المناسبة. ومن دون اي شك هذه خبرة جديدة على هذا الرجل النبيل الواثق من نفسه. وكي تشجعه ابتسمت له فأسرع بالقول:«قبل كل شيء، اسمحي لي بأن اقدم نفسي،انا البيربلان فالريفيا. وانت تدعين جنيفر. اليس كذلك؟»

قالت بصوت غير واثق:«نعم، سيدي.»

قام بحركة سلبية وقال:«انا انما افصحت عن اسمي، في حال اردت ان تستعملي عني.»

قالت:«شكرا، لكن لن اجروء ابدا ان اقوم بشيء كهذا.»

قال رافعاً حاجبيه:«ولم لا، انت لا تعرفين شيئاً عني، الا اني ابحث عن فتاة انكليزية. وقد كتبت الاعلان بكلمات تدعو الى الغموض والالتباس، الا تعترفين بذلك.»

وافقت جنيفر بايماءة من رأسها وخاطرت تقول:«بالمناسبة، احب ان اطرح عليك بعض الاسئلة.»

«سأرد عليها بكل طيبة خاطر. لكن قبل كل شيء، سنفعل بما ينص علينا التقليد ونتناول قليلاً من الشاي.»

رن الجرس فحضر الخادم في الحال.

«شاي للآنسة، ولي ايضا. تقليدكم هذا يدل على لطف ولباقة.»

انحنى الخادم رأسه وخرج من الغرفة. كان البير يراقب جنيفر بامعان دقيق. وبعدما تفحصها جيدا، اشتبكت نظراته بنظراتها وتمكنت من رؤية الاعجاب في عينيه. وتلون وجه جنيفر قليلا. فقال:آنستي، ارغب في معرفة ما الذي لفت نظرك في هذا الاعلان. هل هذا يعود الى احتمال ان تتجردي نهائيا من اعبائك المادية؟»

ابتسم بسخرية وتابع يقول:«خلال الايام الاخيرة، جلست مكانك نساء كثيرات، شابات. كلهن شقراوات، طيعات ومحتشمات. حسب تصريحهن، ومن دون استثناء كل واحدة صرحت ان السبب الذي من اجله طرقن هذا الباب هو الحياة المترفة والاستقرار المادي طيلة حياتهن.

www.liilas.com

غير اني اشعر، ان الفضائل التي يتحلين بها كانت خاطئة مثل الوان شعرهن. صحيح اني رجل عجوز، وتقليدي، ولكن ما زلت قادراً على الحكم اذا كان الشعر مصبوغاً ام لا.»

احتجت جنيفر رافعة ذقنها وقالت:«لون شعري طبيعي، يا سيدي. واريد ان تعرف شيئاً مهماً، اذا كنت ابحث عن الحياة السهلة والاستقرار المادي، فليس ذلك من اجلي.»

قال باستغراب:

«هكذا اذن! في هذه الحال، هل باستطاعتي ان اسألك من اجل من تنشدين الاستقرار؟»

ترددت لحظة، ثم اعلنت تقول:«ذكر الاعلان ان الطلبات مقبولة للواتي يتحملن اعباء الاسرة. معي، طفلة، عمرها سنة واحدة، وصاحبة الغرفة التي اسكنها انذرتني بضرورة مغادرتها لأن الطفلة غالباً ما تبكي، لأنها تتألم من اسنانها التي بدأت تنشق. واضافة الى ذلك، علمت البارحة ان مصاريف دور الحضانة حيث ارسلت ديانا ارتفعت اسعارها. واخشى الا اقدر على مجابهة الوضع. هذا ما دفعني للمثول هنا اليوم. اني ابحث بشكل يائس عن سقف يمكنه ان يحمينا، انا وديانا. واذا لم اتمكن من ايجاده ساضطر

الى وضع ديانا في دار الايتام. لكني مستعدة لكل شيء كي اتحاشى ذلك... مستعدة لكل شيء.»

وببطء رفعت عينيها. كان العجوز يحدق فيها، ليس بتسامح، بل باحتقار. قطب حاجبيه وقال في سخرية:«وانا الذي اعتقدت ان ابحاثي قد اعطت ثمارها في النهاية. لقد تأكدت منذ النظرة الاولى انك الوحيدة التي تلائم هذه الوظيفة. تبدين فتاة بريئة، سليمة النية. لكن، مع طفلة، بعد كل شيء!»

اطلق زفرة عميقة ثم اضاف:«حتماً، الاخلاق تغيرت كلياً.»

احمرت وجنتا الفتاة، فنهضت فجأة وكانت تغلي من الغيظ قائلة:

«ديانا ليست ابنتي، بل شقيقتي، كيف بامكانك ان تعتقد ان...»

ظل السيد البير جامداً، ثم هز رأسه بحزن وقال:«يا عزيزتي، لم اكن انتظر منك ان تجدي عذراً لما قلته.»

«لكن، ما تقول خطأ. ولست بحاجة الى اختلاق الاعذار.» ضربت قدمها على الارض بغضب. نسيت خجلها وقالت بصوت مرتفع:

www.liilas.com

«كنت في التاسعة عشرة من عمري عندما عرفت والدتي انها تنتظر مولودا جديدا. وفترة الحمل كانت قاسية وخطرة، بسبب كبر سنها، لست قادرة ان ادخل بالتفاصيل الآن. كل ما بوسعي قوله انها ماتت وهي تنجبها. وبعد اشهر، قتل والدي في حادث سيارة. مذ ذاك وانا اهتم باختي قدر المستطاع. للأسف راتبي غير مرتفع ويستحيل علي احيانا ان اوازي الدخل مع المصروف. لهذا السبب انا هنا. اعلانك دفع بي الى امل الخروج من هذا الوضع. ربما الى حياة جديدة ستنفتح امام ديانا. غير اني لم آت الى هنا من اجل الحصول على حياة مترفة او طلبا للرزق. ببساطة، انا ابحث عن مكان يمكنني فيه ان اربي ديانا من دون ان اضطر الى اسكاتها كلما بكت، الى مكان حيث يمكنها ان تكبر وتعيش حياة طبيعية. هذا ما ارغبه، يا سيدي، وهذا ما سأرغبه دائما، الى اللقاء.»

حملت حقيبتها وهي على وشك البكاء وانهت كلامها قائلة:

«لا سبب لاستدعاء الخادم، اعرف الطريق جيدا.»

بسرعة ورشاقة بالنسبة الى رجل من سنه، اقترب

منها وقال:«لا تذهبي، يا آنسة، ارجوك. لقد اسأت الحكم عليك. ارجوك ان تقبلي اعتذاري. هل تتشرفين بالبقاء؟ لدي ما اقوله لك.»

وكان دخول الخادم المفاجىء وهو يجر طاولة صغيرة قد افقد من عزيمتها عن مغادرة الغرفة. فقال السيد البير بلهجة ملاطفة:

«من فضلك، ابقي هنا وقدمي لي الشاي.»

كان من الصعب مقاومة كلامه، ولم تلبث جنيفر الا ان استسلمت قائلة بعد لحظات مترددة:

«حسنا. اقبل اعتذارك. وسأحتسي الشاي معك.»

وبينما كانت تسكب الشاي في فنجانين، راح يراقب حركاتها الدقيقة. وفي الحال اضاء بريق صغير عينيه السوداوين.

خلال الحديث بينهما، استجوبها بلياقة ذكية، وارغمها على البوح بكل تفاصيل حياتها من دون ان تشعر اطلاقا انها تخضع لتحقيق. بل العكس، كانت تشعر تجاهه بنوع من عرفان الجميل للاهتمام الذي يحمله اليها. كان يستعمل لباقته بسعادة اشعرتها بالاسترخاء الممتع، كأنها تشاطر رفقة عمها المهتم بمشاكلها والذي يدير لها اذانا صاغية. شعرت بثقة تامة

www.liilas.com

وراحت تقص عليه كل عذاباتها الماضية وآمالها المستقبلية.

دقت الساعة الرابعة، قاطعة هذا الحوار الحميم وقالت جنيفر باستغراب:«كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ لم اكن افكر اني سأتغيب اكثر من ساعة. يجب ان اعود الآن.»

نظر اليها بدهشة وقال:«لا يمكننا ان نختصر هذا الحديث الآن، ونحن ما زلنا في خضمه، يا ابنتي. ما زلت في حاجة لأن احدثك بالتفصيل عن العرض الذي كنت بصدد تقديمه اليك.»

«اذن، هل في نيتك ان توظفني عندك؟»

«اخترتك ولن يقع اختياري على غيرك.»

ابتسم واقترب منها متابعا:«غير ان القرار النهائي عائد اليك، بكل تأكيد.»

استرخت جنيفر في مقعدها متأثرة بلهجته الوقورة. فقد كانت على انتظار وترقب.

سألها فجأة:«ماذا تعرفين عن تشيلي؟»

قالت مندهشة:«الشيء القليل. تقع في اميركا الجنوبية. اليس كذلك؟»

هز رأسه ايجابا وابتسم قائلا:«تماما، انها بلاد بشكل الفاصوليا الخضراء، تقع بين الانديس والمحيط الهادي. من جهة، هناك الجبال وثلوجها

المستمرة، ومن جهة اخرى، البحر وامواجه العالية. اني اعيش هناك وهي المكان المفضل لتربية شقيقتك. هذا البلد متنوع المناخ، وكذلك مناظره المختلفة. ففي الشمال، نرى فسحات شاسعة صحراوية حارة حيث الامطار نادرة. بينما في الجنوب، الغابات رطبة جدا ولذلك ابناء تشيلي يقولون في مزاح انها تمطر على الاقل 365 يوما كل سنة. وقمم الثلج العالية تطلق السيول والانهار والبحيرات. وبين الاراضي الصحراوية في الشمال، والاراضي الواسعة والباردة في اقصى الجنوب، يقع السهل الاوسط الكبير. وهنا اقطن، في اسفل الوادي الخصب. الطقس رائع، الصيف حار وجاف والشتاء ممطر.»

توقف السيد البير لحظة ثم عاد يقول:«اتت عائلتي الى هذه البلاد منذ زمن بعيد واستقروا في هذه البلاد. وبعد مدة غير قصيرة ارسلوا وراء باقي افراد العائلة في البداية، كان ذلك صعبا لكن رويدا رويدا توصلوا الى التغلب على مصاعب الحياة. واليوم يعتبرون من ابناء تشيلي اكثر من كونهم فرنسيين. اننا معجبون كثيرا بشجاعة الهنود وحبهم للحرية، كما اننا

www.liilas.com

نعي تماما كوننا متعلقين بالتقاليد القديمة التي حملها اجدادنا معهم. ان هذه الفضائل التي يتمتع بها الهنود ساعدت على انشاء الامة التشيلية. غيران موقعها الجغرافي، وكونها مطوقةٍ بالجبل والبحر والصحراء يجعلها منعزلة تقريبا عن العالم. الحروب والثورات المستمرة مزقتها. الهزات الارضية والتيارات البحرية القوية والمتكررة، ساعدت على تدمير مدن بكاملها وما زال هذا يحدث الآن. البراكين استيقظت من جديد ترمي حممها احيانا بين ليلة وضحاها. ان الشباب يشبهون تماما «الكاوبوي» رعاة البقر الاميركيين العاملين في مزرعتي والذين يهتمون بالماشية. انهم صاخبون، انفعاليون وتلقائيون. وهم يعكسون صورة بلادهم.»

توقف قليلا ثم اضاف:«حفيدي يشبه هؤلاء العمال وهو الذي سيرأس المزرعة بعدي، في السنوات المقبلة. لكن، بانتظار ان يخلفني، سيعيش حياة رعاة البقر الى ان يحين اليوم الذي اقرر فيه ان اتقاعد.»

«ران صمت قصير ثم تابع يقول: «ومن اجله، نشرت الاعلان في الصحف. واذا كنت ارغب في ان تأتي معي الى آخر

العالم، ذلك من اجل ان تصبحي زوجته.»

حدقت جنيفر به مذعورة وقالت متلعثمة:«م... ماذا؟»

اضاف والحزن يملأ وجهه:«نعم. هذا محتوى عرضي، حفيدي بحاجة الى زوجة، واعتقد اني الوحيد الذي يمكنه ان يختارها له.»

اطلق زفرة وهمس بصوت يدل عن ارهاق وتعب:«الآن، اصبحت رجلا عجوزا، وارغبٍ وهذه امنيتي الغالية، ان اغادر مزرعتي تاركا اياها في ايدٍ صالحة. عندما يتزوج، يصبح حفيدي قادرا ان يفرض سلطته على رجال الاعمال الناضجين الذين يتعامل معهم ويفرض الطاعة على العمال الذين في سنه والذين ما زالوا يعتبرونه واحدا منهم.»

راح قلب جنيفر يخفق بسرعة وهي تهز رأسها. كلماته احدثت عندها نوعا من الدوار. مجموعة صور تتداخل في مخيلتها. وتتصادم فوق بعضها البعض، قمم الجبال الثلجية، والبحار الهائجة والصحارى الحارة، حتى لهب الشمس والغابات الغارقة تحت المطر، كل هذه الصور بدأت تتمايل امام عينيها.

الهزات الارضية المرعبة التي وردت في حديث

www.liilas.com

السيد البير لم تحدث فيها رعبا مثلما احدث فيها عرضه غير المنتظر، الزواج من حفيده.
كانت مضطربة ومشوشة تجد صعوبة كبيرة في السيطرة على تتابع افكارها.
العمال الذين يشبههم برعاة البقر الاميركيين، هؤلاء المندفعون الصاخبون، يعيشون نمط حياة مختلفة تماما عن الحياة التي يعيشها. صحيح انه تسنى لها ان ترى في السينما المواشي المنتشرة على مد النظر في السهول، وان تعجب بالفرسان والرعاة الذين لا يغادرون احصنتهم ليلا ونهارا. لكن هذه المساحات الشاسعة التي كانت تشاهدها على شاشات الصالات المظلمة، كانت تبدو من صنع الخيال، اكثر من كونها واقعية. اضافة الى ذلك، تلك الموائد التي يشترك فيها العمال في الهواء الطلق تحت ضوء القمر والنجوم حيث تشوى اللحوم بكمية ضخمة، تزيد هذا الشعور خيالا وبعدا عن الواقعية. فالبيض المقلي واللوبياء المسلوقة، اليس هذا ما كان يتألف منه طعامها؟ وها هي الآن في وضع يقترح عليها عجوز ان تتزوج من رجل ينتمي الى عالم آخر تجهل كل شيء عنه.
فتحت عينيها بقوة، فاحدثتا عندالرجل العجوز

دهشة قوية، كأنها حالة صدمة ما. سألته«هل انت تتكلم بجدية؟»
اجاب بلهجة قاطعة:«نعم. انا اتكلم بجدية تامة يا آنسة.»
اطلقت زفرة مؤلمة وقالت:«لكن حفيدك هذا...ماذا يفكر بمثل هذا التدبير؟! اي نوع من الرجال هو كي يقبل ان يختار له جده زوجة؟»
همس العجوز، حالما:«اي نوع من الرجال هو؟ انه نسخة طبق الاصل عن والده. تألمنا لخسارته منذ سنوات عديدة. كان ابني الوحيد وقتل على اثر هزة ارضية. احب زوجته حبا كبيرا. وهي كانت رائعة الجمال. اراد يوما ان يقدم لها الملابس الجديدة ومساحيق الزينة، فاصطحبها معه الى المدينة. وهناك وقعت المأساة. كانا في الفندق عندما حدثت الهزة، وسقطت الجدران عليهما. كانا زوجين مثاليين، متحدين بشكل لا يوصف.»
ران صمت قصير ثم تابع قوله:«لا يتذكر حفيدي شيئا عن والديه. ومع مرور الزمن، اصبح يذكرني كثيرا بوالده. في السنوات الاخيرة قبل وفاته، منحني ابني الوحيد ارتياحا وتعويضات جمة. وقبل وفاته ببضعة اسابيع، شكرني على

www.liilas.com

طريقة تربيتي له وعلى نصائحي. سيشكرني حفيدي يوما ما، لأني سأدله على الطريق الصحيح، الطريق الوحيد لتحقيق الذات كليا. لكن، لا اعرف ماذا ستكون ردة فعله امام هذه المبادرة.»

فجأة اصبح نظره بارداً وغير واضح التعابير وتابع:«لكنه في النهاية سيفعل ما سأقوله له.»

شعرت جنيفر بالشفقة تجاه ذلك الشاب الذي يعيش منذ سنوات عديدة تحت ظل هذا العجوز السلطوي المستبد. لا شك ان الثقة تنقصه وهذا ما تفهمه تماما، اذ انه يثق بحكم الغير اكثر من حكمه هو. لا شك ان الخجل قد شله. لا بد ان يكون انسانا معقدا وحساسا للانتقادات ومكبوتا على ذاته.

غير انها، بالرغم من الشفقة التي تشعرها تجاهه، فليس واردا ان تقترن به.اعلنت بهدوء تام:«انا آسفة، عليك ان تبحث عن زوجة لحفيدك في مكان آخر.»

سألها بصوت قاطع:

«لماذا؟ هل انت مغرمة برجل آخر؟»

«لا، ليس هذا هو السبب اطلاقا.»

«اذن لماذا تكذبين؟ الم تؤكدي لي، منذ قليل، انك

ستفعلين اي شيء من اجل راحة اختك؟ وما اقدمه لك ليس اي شيء. يبدو انك لا تفهمين ان حظا جيدا قد قدم اليك. فكري قليلا في الحياة التي تعيشينها في الوقت الحالي وبالحياة التي اقدمها اليك.»

احتجت قائلة:«لكنك لا تفهم شيئاً. لن اتزوج ابدا من رجل اجهل عنه كل شيء ولم يسبق ان التقيت به حتى ولو مرة واحدة.»

«غير انك ترغبين في الزواج يوما.»

احمر وجه جنيفر وقالت:«يعني ان ... يوما ما، اود ان... نعم.»

قاطعها وقال بصوت ناعم:«انت كثيرة التفاؤل اليس كذلك يا آنسة؟ ولديك آمال كثيرة من دون شك. لكن هل تعتقدين حقا ان رجلا سيقبل ان يربي طفلة ليست منه؟ الرجال انانيون، ويرفضون التضحيات، هل تريدينني ان ارسم لك وضعك، الذي ستواجهينه بعد بضع سنوات؟ سترهقين باعباء تربية طفلة لوحدك، وستصبحين عجوزا قبل الأوان. ستجدين نفسك وحيدة عندما تصبح اختك في سن الدراسة، ثم وحيدة من جديد، عندما تبدأ في الخروج. وسترين سن الشيخوخة يمتد امامك. وستجدين

www.liilas.com

نفسك غير محبوبة او مرغوبة. ولا تعودين في حاجة للانتظار كي تشكرك اختك على اهتمامك بها، هذا اذا كانت مختلفة وغير اعتيادية.»

غمرتها قشعريرة باردة فقالت:«انت رجل قاس، يا سيدي.»

«بل واقعي، يا آنسة. من الافضل لك ان تتبعي نصيحتي.»

أدار ظهره وخرج من الغرفة. وبالرغم من الحرارة داخل الغرفة شعرت جنيفر بالبرد يجتاحها. اجتاحها خوف فوق الوصف. راحت ترى نفسها وحيدة وقد فقدت جمالها وجاذبيتها، واصبحت هرمة. اليس هذا ما يخيف؟

نظرت حولها وراحت تقارن محتوى هذه الغرفة الانيقة والفاخرة بغرفتها الحقيرة شبه العارية، غرفة عليها مغادرتها بعد اسبوع. الى اين تذهب؟ والى متى سيدوم هذا الواقع المؤلم؟ ربما ستشعر ديانا بعدم الاستقرار الذي سيترك فيها اثرا ابديا.

عندما عاد السيد البير الى الغرفة كانت عينا جنيفر تحدقان بنار المدفأة التي يترنح لهبها باستمرار. كانت تبدو هادئة جداً. اقترب منها فادارت وجهها نحوه. ورأت في عينيه بريق

امل،ابتسمت له فقال:«هل قررت، يا آنسة؟»

«نعم، سيدي. قررت ان اقبل العرض. آمل ان يجدني حفيدك زوجة تناسبه.»

www.liilas.com
مكتبة

الفصل الثاني

بعد ثلاثة ايام كانت جنيفر جالسة امام نافذة الفندق الذي يطل على الساحة العامة، تراقب فصيلة من الجنود تقوم بمناورات حربية على صوت الابواق. انه تبديل الحرس امام قصر مونيدا، قصر الضيافة التابع لرئيس الدولة. ويعتمر الجنود قبعات ويرتدون الدروع والسراويل الكاكية وينتعلون جزمات من الجلد الاسود تصل الى ركبهم. كانوا مصطفين امام من سيحلون مكانهم، وينتظرون الاوامر. الضباط التابعون للفريقين، يحيون بعضهم، بحركات انيقة ودقيقة. ويحصل التغيير، اثنين اثنين، الى ان تتغير الفصيلة كلها. ثم تعزف الابواق موسيقى عسكرية ويمشي الجنود بعد نهاية مهمتهم في شوارع سانتياغو متجهين الى ثكنتهم.

بدت العاصمة ممتدة كليا امام انظار جنيفر. انها تقع وسط سهل واسع ويعبرها نهر في جهتها الشمالية. وتحدها شرقا الجبال الشاهقة التي تسد الافق، وهي جبال الانديس.

كان الانطلاق من لندن منذ 24 ساعة وكانت

الرحلة مريحة وموفقة. واهتم السيد البير بالطفلة ديانا تماما كما يجب. وبينما كانت في احضان جنيفر لم تكف عن النظر اليه والابتسام له. سحرته الطفلة فأصر على حملها وتدليلها تاركاً جنيفر في افكارها وهي تتساءل عن الحوافز العميقة وعن الشائعات التي ستروجها زميلاتها في المكتب.

خادم السيد البير اهتم بكل شيء، حتى آخر التفاصيل. لكن الوقت كان قصيراً وشعرت جنيفر بأنها لاهثة ومبهورة. كانت تعي انها ترتكب حماقة كبيرة. ففي انزعاج كبير، كانت قد اتصلت بمديرها وشرحت له انها ستقدم استقالتها من العمل.

«بسبب الظروف العائلية، اضطررت للبحث عن مسكن جديد. كما اني وجدت عملاً آخر لا يبعد عن المكان الذي اسكنه من الآن فصاعداً.»

اجابها بلهجة لطيفة: «اننا آسفون ان تغادرينا لكن، بما اننا ندخل مرحلة عصيبة، فغيابك لن يؤذينا. بامكانك ان تتصلي بي في الوقت الذي يناسبك حتى ارسل اليك راتبك وشهادة العمل.»

اتصلت جنيفر بمديرها هاتفياً في فترة الغداء،

www.liilas.com

حتى تتحاشى اسئلة زميلاتها المحرجة. فهي لا تتمتع بالشجاعة الكافية لترد على اسئلتهن. كانت علاقاتها مع زميلاتها في المكتب علاقات عمل وحسب. وكانت تضطر الى رفض جميع الدعوات، لأنها كرست كل وقتها الفارغ للاهتمام بديانا. ولذلك لم تكن على صداقة حميمة مع اي من الزميلات. وفكرت جنيفر في مرارة انهن سيتكلمن عنها يوما او يومين، ثم سينسينها تماما.

تنفست الصعداء وابتعدت عن النافذة متوجهة نحو سريرها. منذ وصولهم الى هذا الفندق، تدبر لها المدير مربية ستهتم بديانا خلال مدة اقامتها القصيرة في العاصمة الشيلية.

نصحها السيد البير قائلا: «حاولي ان تنامي قليلا، اذا تمكنت من ذلك، يا ابنتي. سنلتقي وقت الغداء في غرفة الطعام. هناك اشياء كثيرة اريد ان احدثك بها قبل الذهاب الى المزرعة.»

قبلت هذا الاقتراح بفرح كبير. فقد تمت الاحداث بسرعة غريبة في الايام الاخيرة. وهذه البلاد تبلبلها، الضجيج، والمناظر الجديدة، والوجوه، كل شيء يبدو غريبا عليها، بل محيرا وكئيبا.

تمددت جنيفر على سرير مريح والاغطية ناعمة،

ومع ذلك فلا شيء باستطاعته تهدئة اضطراب اعصابها. كانت متوترة ومشوشة الافكار.

الم تقبل بالزواج من رجل لم تره في حياتها من قبل؟ وهل هي قادرة ان تكون سندا فعالا لهذا الرجل الخجول ذي الطبع اللين؟ وهل ستحل الخدمات التي ستقدمها له مكان الحب؟

لم تتوصل الى الشعور بالراحة المنشودة وظلت تتقلب في فراشها من دون جدوى. احتلها ارتخاء متعب وتدريجيا شعرت بثقل في جفنيها وسرعان ما غطت في نوم عميق. حلمت ان رجلا ظهر في حياتها ليريحها من كل اعباء الحياة، كانت ارادته لا تقهر وحماسه لا يضاهي. جاء ليعزيها ويواسي همومها. شفى جروحها العميقة واعاد اليها الحماس وحب الحياة. واخيرا، اشعل في صميم قلبها الحب. منذ سنة تقريبا وهذا الحلم يراود لياليها.

وعندما استيقظت من نومها، بعد مرور ساعة تقريبا، كانت الدموع تملأ عينيها. نظرت الى ساعة يدها. ما زال امامها الوقت الكافي قبل ان تهيء نفسها لموعد الغداء. الشمس سربت اشعتها من وراء النوافذ الخشبية المغلقة. والقت نظرة حولها باستغراب. انها تذكر كليا انها تركت

www.liilas.com

النوافذ مفتوحة قبل ان تتمدد في سريرها. لا احد غيرها موجود في الغرفة. غير ان شخصا، قد دخل الى غرفتها في صمت وهدوء بينما كانت نائمة واغلق النوافذ. بسرعة، توجهت الى الباب واقفلته بالمفتاح. الشعور بالتجسس عليها وضعها بحالة انزعاج. لكن تصرفها هذا لا اعتبرته تافها، غير انها شعرت في الوقت الحاضر انها سريعة العطب وان اقفالها الباب سيجعلها اكثر اطمئنانا.

شعرت برغبة في الاستحمام فتوجهت نحو الحمام، وتوقفت فجأة حين رأت تلة من الصناديق الرمادية موضوعة في ارض الغرفة. انها من مختلف الاحجام وكلها تحمل اسم «ميرابيل» محفورة احرفها بالذهب. تناولت الصندوق الاول وهزته بحذر فصدر عنه حفيف بالكاد سمعته فاثار اهتمامها. فتحته وبيدين مرتجفتين ابعدت الورقة الحريرية البنفسجية وشاهدت قميص نوم من الدانتال الناعم. لم تتمكن من الامتناع عن اطلاق زفرة استغراب فرحة قبل ان تسحبه من العلبة وتتأمله مليا.

فتحت جميع العلب واحدة تلو الاخرى بنوع من الاثارة جعل انفاسها تتقطع: كل صنف

من الالبسة يسحر الالباب وامام عينيها غير المصدقتين، انتشرت اخيرا مجموعة من الفساتين وقمصان النوم والبزات والبنطلونات والحقائب اليدوية والاحذية. لا شك ان هذا كلف اموالا طائلة. كانت الغرفة قد امتلأت بالاوراق واغطية العلب. عندما فتحت الصندوق الاخير، الذي يفوق حجما بقية الصناديق الاخرى، وجدت صعوبة لتمزق الورق الملفوف حول العلبة قبل فتحها. لكنها سرعان ما اطلقت صرخة اندهاش وهي تنظر الى معطف من الفرو الغامق اللون. وبعد تردد بسيط راحت تلامسه بسعادة وامتنان.

وظلت برهة طويلة مفتونة امام هذه الاغراض الممتدة امامها، حتى نجمات السينما لا تملكن مثل هذه الملابس الفاخرة، والباهظة وبما انها معتادة ان تكون فتاة اقتصادية، وجدت مثل هذا الاسراف غريبا وشاذا، ولا تجروء ان تقدر قيمته.

وبعد تفكير طويل، اختارت ثوبا ابيض اللون، بسيطا، يدخله التطريز الانكليزي. ارتدته ووقفت امام المرآة تتأمل نفسها، فوجدت انه يليق بها اذ ان قصته ذات فن رفيع. ان هذا الفستان يظهر شكل جسمها النحيف والممشوق، ويلفت الانتباه.

www.liilas.com

مساحيق الزينة والعطور كانت موجودة ايضاً. فوضعت على شفتيها قليلاً من احمر الشفاه، بلون المرجان، وكحلت عينيهاوجفنيها، وكانت في الوقت نفسه تفكر بالرجل الذي حلمت به يرافقها. تذكرت السيد البير، هذا العجوز الفريد من نوعه الذي لا شك ان لديه معرفةٍ واسعة فيهن. بحدس ذكي، عرف ذوقها تماما، بالرغم من لا مبالاتها بالزينة والملابس المترفة. حتى انه اكتشف قياسات جسمها وقدميها.

وبعدما تأكدت ان ديانا تنام بهدوء، نزلت جنيفر الادراج متوجهة الى مطعم الفندق حيث كان السيد البير في انتظارها. كان يحتسي شرابا خفيفا وهو جالس قرب النافذة. نهض عندما رآها تقترب منه. فشعرت جنيفر في الحال برغبة التعبير عن امتنانها، فمدت له يدها، لكنها اندهشت عندما رفعها الى فمه.وقال باعجاب:«الشعلة. الجميلة.»

قالت وهي تهز رأسها:

«شكرا جزيلا، يا سيدي.»

كان الوقت ظهرا والشمس التي كانت تملأ قاعة الطعام تعكس اشعتها على جدائل شعر جنيفر الملفوف حول رأسها.

بعد وقت قصير، جلسا امام مائدة الطعام وقدم لها الخادم سلطة «بالتا» المؤلفة من القريدس والأفوكادو المتبلة بعصير الحامض. الوجبة الاساسية كانت مؤلفة من عجينة تحتوي على مجموعة من اللحوم، والزيتون والبصل والفلفل الاخضر والزبيب. وبينما كانا يأكلان كان الحديث يدور حول امور عادية، لكنهما كانا يعرفان جيدا، انهما سيشرعان بعد قليل البحث في الامور الاساسية. بابتسامة متسامحة، انتظر السيد البير ان تنتهي جنيفر من تناول الوجبة الاخيرة المؤلفة من بوظة الفراولة، وان تحتسي القهوة. ثم اعلن بغتة:«صباح اليوم اتصلت بحفيدي. سيأتي في طائرته لملاقاتنا في مطار سانتياغو.»

ثم القى نظرة الى الساعة واضاف:«سيصل بعد ساعة بالضبط.»

قالت جنيفر بصوت مخنوق:«هكذا باكراً؟»

باشارة من رأسه وافق ثم قال:«اريد ان اطلب منك شيئا يا ابنتي. قبل وصول حفيدي بعد تفكير طويل، توصلت الى النتيجة التالية:ارى انه من الافضل ان تدعيه يعتقد ان ديانا ابنتك.»

ارتسمت الدهشة على وجه الفتاة، فاسرع يقول

www.liilas.com

بالتحديد:«وفي الوقت المناسب، سأفصح له بالحقيقة كلها.»

«لكن لماذا تريد ان تكبده خيبة الامل هذه، يا سيدي؟»

ظل ساكتاً يحدق فيها بإمعان. كان وجهها مليئاً بالبراءة والنضارة، مما جعل الابتسام يرتسم عليه وجهه

حين قال:

«بما اني اعرف ذوق حفيدي بما يسمى بالالغاز، فقد قررت ان اطرح عليه لغزا. لا شيء يوقظ التحدث مثل سر يبقى كاملا. وكيف عندما يرى فتاة متحفظة وبشوشة لا يمكن لأحد ان يشك انها ام لطفلة صغيرة؟ الطفلة تشبهك كثيراً وسيعتقد، كما سبق واعتقدت انا، انها ابنتك. سيكون الامر طبيعيا.»

احمرت وجنتا جنيفر وحاولت جهدها للحفاظ على هدوئها وقالت:

«اذن، تريدني ان أدعي بأني والدة ديانا من اجل ان تشحذ فضول حفيدك، فقد لا غير. اعتقد ان ذلك ليس تصرفا لائقا من جانبك، ان بالنسبة اليّ او بالنسبه اليه.»

تجهم وجهه وظهرت القساوة في نظرته وقال

بلهجة لاذعة:«لا دخل للعواطف بهذه الصفقة التي عقدناها وليس فيها سوى الفوائد المادية التي ستحصلين عليها.»

اكفهر وجهها، ظاهريا يبدو هذا العجوز طيبا وساحرا ولكنه يخفي وراء ذلك قساوة حقيقية. غير انها توافق بأن له الحق في ان يذكرها بغاية هذا الاتفاق، الذي تجني منه فائدتها بسعادة ساذجة. غرفتها في فندق درجة اولى وملابسها الفاخرة، كلها تظهر كرمه الحاتمي. وفي الوقت الحاضر، لم يعد لها الحق بالتذمر، لانها قامت باختيار سجنها الذهبي وعليها ان تسلم به وتتحمل كل المسؤولية.

قالت مطأطأة الرأس:«سأفعل ما تريده، يا سيدي، لكن، ماذا تريد مني ان اقول لحفيدك بالضبط؟ الموضوع شديد الدقة.»

«انك مسؤولة عن طفلة وعليك تحمل اعباء ذلك، ببساطة.»

«شيء في اعلانك اثار اهتمامي وهي الفقرة التي تتعلق بقبول طلبات اللواتي يتحملن اعباء الاسرة. نادرا ما يقبل اصحاب العمل ان يقيم الموظف لديهم في بيوتهم مع افراد العائلة. اذا، لماذا؟»

www.liilas.com

وبما ان جنيفر وعدت بلطف ان تفعل ما يريده العجوز منها، تغير مزاجه وتناول سيكارا واجاب قائلا:«كل كلمة وردت في الاعلان كانت مدروسة باعتناء ودقة، وخصوصا ما جاء في الفقرة التي تنوهين بها. الفتاة التي كنت ابحث عنها عليها ان تملك كل الصفات التي لا جدل فيها، وخاصة ان تتحلى بحسن الواجب، الذي هو اهم شيء في نظري. يجب الا افقد ثقتي بها في المستقبل. وعندما يكون المرء خاليا من هذه الصفات لا يمكنه ان يتحمل اعباء الاسرة وخاصة لفترة طويلة. وهذه الطفلة تخدم خطتي تماما. لا يحب المرء اهله فعلا الا بعدما يصبح هو ابا أم اما ايضا. لذلك، ان تعيشي قرب هذه الطفلة، وتهتمي بها، سيعود ذلك اليك بفائدة جمة. فاذا امضى حفيدي ليلة قرب سرير طفلة مريضة سيتعلم الكثير وسيجني ثمارا لا يمكن لأي فلسفة نظرية ان تمنحها له.»

«قلت ان حفيدك لا يتذكر والديه اطلاقا. وبنظره، انت الذي لعبت دور اهله. هل هذا يعني انه تصرف نحوك بجحود؟»

«ليس تماما. لكنه يشك بصحة طريقتي وليس قادرا ان يفهم بوضوح دوافعي. ربما اذا جابه

بنفسه المشاكل التي تطرأ على تربية الاطفال، سيعي الصعوبات التي واجهتها عندما كنت اربيه. سيفهم اخيرا ان ما أفعله يخدم مصالحه.»

وبقدر ما هذه المصالح توافق مصالحك. هذا ما فكرت به جنيفر في نفسها وهي ترتعش.

منذ لقائهما الأول، تنبأت جنيفر ان هذه اللياقة الخارجية التي يظهر بها تخفي وراءها رجلا قاسيا وحاسما، يسخر بآراء غيره، ويفرض ارادته على الضعفاء، وذلك في عجرفة وتعاظم ودون مراعاة. وبالنتيجة، ايقظ في نفس حفيده الخجول والمطيع العداء والضغينة.

انقبض قلبها. حفيده انسان ضعيف وواهن مثلها. ماذا بامكانهما ان يفعلاه، اذا كانت هناك يد خبيثة تعاملهما كما تشاء؟

www.liilas.com
ناشري

الفصل الثالث

في سيارة التاكسي التي تقلهم الى مطار سانتياغو، لم يتكلم السيد البير الا قليلا. كان يبدو متوترا وعصبيا. ولما دخلوا الى المطار، شعرت جنيفر بانقباض وتوتر ايضا.

بعد دقائق قليلة، ستتعرف الى الرجل الذي وعدت بالزواج منه، كانت ديانا متكورة على صدر اختها بقوة، مما جعل جنيفر تسرع لتقف قرب السيد البير الذي كان مسمر العينين في الطائرة الأنيقة الجاثمة على المدرج.

همس يقول:«عظيم. لم يتأخر في الوصول.»

ارتخت تقلصات شفتيه وابتسم. وانتشرت حولهما حركة نشطة، اندفع سيل من المسافرين الى الطائرات التابعة لمختلف شركات الطيران. الاقلاع والهبوط يتعاقبان في تناغم ثابت. لكن جنيفر لم تكن تنظر الا الى الرجل الذي خرج من الطائرة الفاخرة وراح يتقدم نحوهما في بخطى واسعة. فأشار اليه السيد البير بيده، ثم قال باستغراب وخيبة امل:

«لماذا جئت انت يا كوستا؟ اين حفيدي؟»

ارخت جنيفر ضغطها على ديانا وشعرت بارتياح لأن الشاب الواقف امامها ليس حفيد السيد البير. كان الطيار يرمقه بنظرات استغراب وبدا منزعجا بشكل واضح، ثم قال:«طلب مني ان اعبر لكما عن اسفه لعدم قدرته المجيء يا سيدي. من كثرة انشغاله، لم يتمكن ان يحرر نفسه كي يأتي ويرافقك.»

انطلق السيد البير غاضبا:«ما الذي منعه من المجيء؟ لم تحدث هزة ارضية على ما اظن!»

اخذ كل واحد مكانه داخل الطائرة. فجلست جنيفر قرب العجوز المتوتر الاعصاب. وخلال مدة نصف ساعة، ظل صامتا وعابسا بينما كانت الطائرة تتجه نحو الجنوب. وغابت العاصمة وناطحات السحاب بعيدا وراءهم. كانت الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض فوق حقول مزروعة بأشجار السرو والاوكاليبتوس والحور. وقنوات مائية تصل الحقول ببعضها البعض.

قال السيد البير بعد ان انفرجت اساريره وجهه:«هذه الاراضي هي افضل اراضي تشيلي. وبسبب الجبل الجليدي، الري يتم بصورة جيدة. جبال الانديس والتلال المكسوة بالثلج تشكل خزانا حقيقيا. لذلك فلا تنقص المياه حتى في الصيف الجاف.»

www.liilas.com

سألت جنيفر: «هل لديك مزروعات، يا سيدي؟»

«اننا نرعى الماشية. لكن لدينا بالطبع حقول مزروعة تكفي حاجتنا فقط.»

ومرة اخرى عم صمت عميق. وازداد توتر جنيفر التي كانت تحدق من خلال نافذة الطيارة وترى حقول القمح والذرة والشعير والخضار، ثم قطعان الماشية. وبعد قليل لم تعد ترى سوى مساحات واسعة من العشب الممتد الى ما لا نهاية وحيث ألوف الابقار والاغنام والماعز. لم يسبق ان رأت مثل هذا التجمع الضخم وهذه القطعان.

ولما بدأت الطائرة بالهبوط باتجاه احد المنازل الذي كان بالكاد مرئيا على خط الافق، عرفت جنيفر انهم وصلوا الى المكان المقصود. وخلال الهبوط خارت قدماها وشعرت بخفقان قلبها. على طرف المدرج كانت سيارة بانتظارهم. صعدت جنيفر في المقعد الخلفي وسارت السيارة في الحال متجهة نحو مسكن كبير يقع وسط مجموعة من اشجار الاوكاليبتوس. والجدران مبنية من الحجارة الثقيلة، ومطلية بالكلس الابيض. اما السقف فمصنوع من صفوف القرميد الاخضر. البلاط الاخضر يكسو

ارض الشرفة وينتشر حول حوض السباحة. عندما دخلوا المنزل، لاحظت جنيفر البلاط نفسه على الارض. دعاها السيد البير ان تعبر المدخل وتوجه بها نحو الصالون. بساط بني فاتح يفرش الارض، وحول الصالون مجموعة مقاعد مستندة الى الجدار ملبسة بالقماش الهافاني، وعلى الجدار رفوف بيضاء مليئة بالكتب الضخمة والمجلدة. هنا وهناك لمبات رفيعة وانيقة تليق بهذا الجو. مدفأة ضخمة تلفت النظر، من حجر الرخام تعلوها ظهرية نحاسية تعكس الوان النار الفاقعة والمتبدلة. ويمكن لعشرة اشخاص ان يتجمعوا حولها.

فتنها المنظر كليا. سألها السيد البير الذي شعر بسعادة واطراء:

«هل اعجبك منزلي، يا انسة؟»

كانت نظراتها البراقة تفيض بجواب ايجابي. فقالت:

«انه رائع للغاية، يا سيدي، ويدل على ذوق رفيع. عرفت ان تدخل كل وسائل الراحة والحياة العصرية من دون ان تسيء الى الطابع الاصلي.»

هز رأسه وكاد ان يشكرها لهذا الاطراء حين

www.liilas.com

انفتح باب الصالون بعنف واطلت منه امرأة، قصيرة القامة، بدينة وراحت تهز ذراعيها مرحبة بهم في حرارة.

«المعذرة يا سيدي، لقد اعلمني الطيار كوستا بوصولك لتوه. هل تأخذان بعض الشراب المنعش، انت والسيدة، اليس كذلك؟ هل اجلب حليباً للطفلة؟»

«شكراً يا سارا. انا اكيد ان ضيوفي يشعرون بالعطش مثلي. لكن قبل ان تقدمي لنا الشراب، ربما من الافضل ان ترشدي الآنسة باين الى غرفتها. هل اخذتم التدابير الضرورية بما يتعلق بالطفلة، حسب اوامري؟»

«نعم يا سيدي. كل شيء جاهز. لو تتفضل الآنسة وتتبعني؟»

وقبل مغادرة الصالة سأل السيد البير مستعلماً: «والمربية؟ هل وجدت الممرضة المناسبة؟»

«اهتميت بالامر كذلك يا سيدي. طلبت من شقيقة كوستا ان تهتم بالامر. وهي تنتظر بفارغ الصبر ان تلتقي الصغيرة.»

قال بامتنان ظاهري: «رائع. كل شيء تم على احسن ما يرام.»

ثم وجه كلامه الى جنيفر بوجه بشوش وابتسامة: «عليك ان تعذريني، يا آنسة، ستحتسين الشراب وحدك. بسبب تغيبي عن المنزل، تكدست الاعمال عليّ. لكن في المساء سنتناول العشاء معاً. وآمل حينذاك ان اعرفك الى حفيدي، الذي سيعتذر بحرارة لأنه لم يأت لاستقبالك في المطار.»

«لا تقلق عليّ يا سيدي. ولا تتردد في ممارسة اعمالك التي لا بد ان تكون كثيرة، على ما اظن. أما بالنسبة الى حفيدك فنعرف ان عذره معه. سنلتقي جميعاً في المساء.»

كادت أن تفقد هدوءها لمجرد التفكير بهذا اللقاء. وحاولت ان تتمالك نفسها، فتبعت سارا وهي تضم شقيقتها ديانا الى صدرها. لقد حققت ما كانت تتمناه. اذ وجدت المكان المناسب كي تترعرع فيه ديانا، من دون ان تشعر بحاجة لأي شيء. لكن عليها ان تدفع هذا الثمن، حتى ولو كان مرتفعاً.

تبعت جنيفر سارة التي قادتها الى اعلى البيت حيث تقع غرفتها وغرفة شقيقتها ديانا. كانت سارا تتكلم بسرعة من دون توقف شارحة للضيفة كل ما بوسعها قوله. كانت الغرفتان تقعان قرب بعضهما مباشرة وقد طليت جدرانهما بالابيض

www.liilas.com

وبنيت الخزائن والرفوف في الزوايا العديدة، بذكاء واتقان. وتحت النافذة علقت صفحة خشبية طويلة يمكن استعمالها كطاولة عمل. والغرفتان متصلتان ببعضهما البعض بباب داخلي. في غرفة ديانا، كانت النوافذ مصونة بشباك حديدي من خلاله يتسرب الهواء المليء بأريج الزهور المختلفة. وبعد وقت قصير تعرفت جنيفر الى شيلا المربية التي اختارتها سارا للاهتمام بالطفلة، فناولتها شقيقتها التائمة بين ذراعيها والتي وضعت للحال في سريرها.

واعتلت جنيفر حالة هيام وعجب. لو انها جالت انحاء المعمورة كلها لما امكنها اكتشاف هذا المكان. وفي فرح وغبطة راحت تتصور شقيقتها وهي تلعب في هذه البساتين الخلابة بين الحيوانات الاليفة. لا شيء في العالم يرغمها على الرحيل من هنا... هذا ما وعدت نفسها به.

امضت جنيفر بقية فترة بعد الظهر في التنزه حول المنزل. كانت تسرح في المكان من دون هدف معين. وبعد قليل وصلت امام مكان مسيج، فاسندت ظهرها على الاسوار الخشبية. كان المكان خاليا. لا شك ان الرجال في مثل

هذا الوقت يكونون في السهول المجاورة، يرعون القطعان التي شاهدتها وهي في الطائرة. فاكملت تجوالها، ذهابا وايابا، في خطى هادئة، ونظرت داخل مبنى واسع معد خصيصا للمنامة. اعتقدته فارغا، لكن بعد قليل سمعت اصوات طناجر وسكاكين فاقتربت لتكتشف مطبخا واسعا تنبعث منه رائحة اللحوم المشوية. هنا يحضر طعام رعاة البقر الذين لا بد ان يعودوا بعد اقل من ساعة.

بدأت الشمس بالمغيب فاسرعت جنيفر في العودة الى المزرعة. كانت مصرة على ان تبدو في افضل شكل امام الرجل الذي كان سبب سعادتها وحظها. كما وهي على استعداد كي توقظ في هذا الرجل الخجول كل اهتمام وفضول. فارتدت فستانا مخمليا ازرق، ذا اكمام طويلة، يظهر نحافة جسمها وانتعلت حذاء رماديا فضيا. ثم سرحت شعرها الطويل حتى ينسدل امواجا شقراء على كتفيها. ونظرت مرة اخيرة في المرآة وشعرت بالامتنان من نفسها، في الحال خرجت من غرفتها.

وفي اعلى السلالم استجمعت كل ما لديها من شجاعة، كادت تقوم بالخطوة الاولى، حين سمعت

www.liilas.com

عدداً من الاصوات المبتهجة تنقض على المنزل، وتعكر صفوها الهدوء الذي كان مستتبا طوال فترة النهار. كان عشرات الفرسان يقفزون عن احصنتهم ويتوجهون في صخب الى المطبخ.

تسمرت جنيفر في مكانها مترددة. ثم سمعت خطوات ثقيلة في الشرفة مباشرة تحت النافذة. دخل احدهم اصواتا وسمعت بوضوح سرعان ما ارتفعت عاليا، وبدا الضجيج والصراخ والصياح والصخب.

بالكاد تعرفت الى صوت السيد البير لأن من كان يتكلم معه كان يقاطعه باستمرار وبحقد وبلهجة انتقامية.

بحيرة واضطراب انحنت جنيفر الى الامام محاولة ان ترى الرجل الذي يرد بحدة وعنف على كلمات السيد البير. من يكون هذا الرجل ليجرؤ ان يتطاول على العجوز الذي يدير المزرعة بيد من حديد؟ لا يمكنه ان يكون موظفا او عاملا، لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتكلموا بهذه الوقاحة وهذا الجفاء.

صفق باب في عنف محدثاً ارتجاجاً في جدران المنزل. وعاد الصمت الثقيل المقلق. وعبق الجو بتوتر يشبه الكهرباء.

حاولت جنيفر السيطرة على خوفها، فتنفست الصعداء واطلقت زفرة طويلة. فجأة انفتح باب غرفتها بقوة ودخل الغرفة رجل، ممشوق القامة، يرتدي بزة سوداء. هذا الاقتحام الفظ أرعب الفتاة، فتسمرت مكانها من دون ان تحدث صوتا. كانت تحدق بالرجل بعينين متسائلتين.

كان الرجل يقيسها بامعان ووقاحة. يرتدي سروالا من الجلد الاسود ضيقا ويظهر نحافة وركيه وطول ساقيه، وكان قميصه المفتوح يظهر صدره الاسمر. وشعره المشعث من شدة الريح فشعره اسود كذلك عيناه اللتان تلمعان ببريق ماكر. ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة وقاسية مظهرة اسنانه البيضاء الناصعة.

قال بلهجة مستخفة: «اذن، انت آخر مقتنيات البير! كان يجب علي ان افطن الى انه سيختار فتاة شقراء باردة، كأنها مصنوعة من جص.»

«من انت؟ كيف تجرؤ على الدخول الى غرفتي من دون ان...»

قاطعها بعنف قائلاً: «آه، ارجوك، لا تبدأي باعتباري انسانا احمق! لا يليق بك ان تلعبي دور الفتاة الخجولة حسب رأي جدي، انت مستعدة تمام الاستعداد لتقاسميني السرير.»

www.liilas.com

احمرت وجنتا جنيفر اشتعالاً وهمست تقول بألم:«اتريد ان تقول انك...»

«زوجك، لا اكثر ولا اقل. لكني زوج عاص ومتمرد.»

احنى رأسه ساخراً واضاف يقول:«انا جاك بلان، حجر آخر في لعبة جدي.»

تلعثمت تقول:حجر... لعبة...؟»

اقترب منها وقال:«ربما لا تعرفين خطة جدي، لا شك انه خجل ان يكلمك عن خطته. اجلسي يا آنسة، هناك شيء عليك ان تعرفيه بشكل ضروري.»

جلست جنيفر في المقعد، وكتفت يديها وشدتهما الى صدرها بتشنج، كأنها تريد بذلك ان تبدد خوفها الكبير من هذا الرجل، الذي يشبه السيد البير بشراسته وهوله. كان عليها ان تتخلص من اوهامها وقناعاتها، هذا الشاب ليس كما وصفه لها السيد البير، ذلك الرجل المنطوي على نفسه والورع. وبدأت تفضل ان تجابه النار والطاعون واي بلاء او مصيبة، ولا ان ترتبط حتى آخر حياتها بهذا الرجل السفاح، البربري ونظرته الباردة، وارث التوحش من اسلافه.

قال بنبرة قاتمة:«جدي مربي ماشية معروف.

قضى حياته يختار ويزاوج ويحسن مختلف الاجناس. واليوم، انه قادر ان ينتج ، حسب الطلب الحيوانات القوية المؤذية او الوديعة، وهو يفتخر بذلك. واضافة الى هذا فهو على استعداد ان يرد للشاري كل ما دفعه اذا لم يكن هذا الاخير راضيا بما يشتريه. وفي الوقت الحاضر، ينوي جدي ان يطبق معلوماته وخبراته على الجنس البشري.»

فوجئت جنيفر بما يقوله واصابتها الغصة. لكنه لم يترك لها مجال الاحتجاج اذ قال مؤكدا: «نعم. ما ا قوله صحيح. لقد سبق وفعل ذلك ونال نجاحا كبيرا. ولهذا السبب يريد ان يقوم بتجربة جديدة.»

صمت قليلا ثم تابع يقول:

«والدي كان مثلي، رجلا عنيدا. كان يفضل ان يفعل ما يروق له حتى ولو قام بأخطاء كبيرة، بدلا من ان يستمع لنصائح جدي. وذات يوم، ومن دون سابق انذار دخلت المزرعة فتاة جميلة. كانت انكليزية شقراء، ذات عينين زرقاوين، وديعة وطيعة. اختيرت كي تعجب والدي. وقيل لي انه وقع في غرامها وكان ذلك الحب متبادلا بينهما. غير اني شككت في بادىء الامر، واعتقدت ان

www.liilas.com

والدي وقع في حب هذه المزرعة الغنية اكثر من حبها. لكن للأسف، هذه الهزة الارضية لم تسمح لجدي ان يكمل تجربته حتى النهاية، ولا شك انه متأسف على ذلك. وكذلك، ومن دون اي شك، يريد ان يقوم بتجربة جديدة يا آنسة، ومعنا.»

رفع ذقنه وسألها بسخرية:«ماذا لو قلت لك انه اختارك فقط من اجل ان يكون لك الاثر اللطيف عليّ مما يجعلني اتصرف نحو جدي بطاعة عمياء؟ لكنني احذرك، يا آنسة، ان هذه الخطة لن تنجح. ولا احد بامكانه ان يجعلني اخضع له.»

بدأ قلب جنيفر ينبض بسرعة بالغة، فرجعت الى الوراء ويدها على صدرها وقالت وهي تهز رأسها:«لست انوي ان اجعلك تخضع لي، يا سيد. كنت اعتقد انك بحاجة اليّ ولهذا السبب جئت الى هنا. تصورت انك...»

اختنق صوتها لحظة ثم تابعت تقول:«كنت اعتقد اني سأواجه رجلاً خجولاً ومعقداً غير قادر ان يجد بنفسه زوجة له. لكن، في الوقت الحاضر، بدأت ادرك ان جدك وصفك لي بطريقة خيالية ولا شيء مما قاله يوازي الحقيقة. وحتى لا يصار الى سوء تفاهم، لن اتزوجك،

يا سيد حتى ولو اضطررت ان اموت جوعاً.»

اصابته في غطرسته وتفاخره، فراح يرمقها بنظرات احتقار وغضب. وباحتراز ابتعدت عنه وتوجهت نحو النافذة وقالت:«والآن، اخرج من الغرفة من فضلك.»

شعر بالحيرة من تصرف الفتاة المتعالي فاقترب منها بارتباك وامسكها من ذراعها بعنف. فتمالكت نفسها لئلا تصرخ فارغمها على الالتفات اليه وقال:

«اتساءل ما الذي جعلك تقررين المجيء الى هنا. انت فتاة جميلة ويمكنك ان تثيري اعجاب الرجال بك، لذلك فانا اكيد انك لم تأت الى هنا لأنك لم تجدي رجلاً يحبك ويريدك زوجة له. هل قدم لك جدي مبلغاً كبيراً من المال؟ آه، اذن هذا هوالسبب.»

افلت يده بسرعة وغضب توجه نحو باب الغرفة. توقف هناك واعلن بصوت قاطع مليء باحتقار مر قائلاً:

«بما ان جدي هو الذي اشتراك فسيفعل بك كما يريد. لم يعد لي دخل بذلك. لكن، اذا اردت نصيحتي، ارحلي في اسرع وقت ممكن. لم نعد بحاجة اليك هنا.»

www.liilas.com

اجتاز عتبة الباب عندما بدأ صراخ ديانا يعلو من الغرفة المجاورة، فأسرعت جنيفر اليها لأن الطفلة كانت وحدها وشيلا المربية تتناول الطعام باتفاق مع جنيفر. ولما وصلت الى سرير ديانا، توقف البكاء وبدأت الطفلة بفرح.

فقالت لها جنيفر في حنان وقسوة:«يا ايتها الفتاة الدلوعة، اذا بقيت أعاملك هكذا ستصبحين فتاة مدللة فوق اللزوم.»

سمعت صوتا وراءها، داخل الغرفة غير المضاءة، فتذكرت للحال انها لم تكن وحدها.

«لمن هذه الطفلة.»

كانت جنيفر تدور حول نفسها حاملة ديانا بين ذراعيها. اجابته بهدوء وافيةبوعدها الذي قطعته امام السيد البير. «هذه الطفلة لي.»

قال غير مصدق:«لك؟»

«نعم. لي.»

فرحت جنيفر لدى رؤيتها الدهشة العميقة التي ارتسمت على وجه جاك، الذي قال:«ووالدها، اين ؟»

من دون اضطراب، قالت بلهجة عادية لا يمكنه ان يشك بصدقها:

«والدها مات.»

القى نظرة سريعة الى يد جنيفر اليسرى، فلم تكن ترتدي محبس الزواج ولم تكن تأبه بما سيفكره عنها. لم تكن تود سوى شيء واحد وهو ان تتخلص من هذا الرجل العدائي.

انحنى نحو ديانا ذات العينين الزرقاوين الصافيتين. فمدت له ذراعيها منتظرة ان يحملها. بدا مرتبكا الى درجة جعلت جنيفر تشهق ضاحكة. لكنها سرعان ما وضعت الطفلة في مهدها وقالت:«عليك ان تنامي، يا صغيرتي. لا، لا تجلسي.»

قبلتها جنيفر وقالت:

«تصبحين على خير يا حبيبتي.»

اشارت لجاك ان يخرج وراءها من الغرفة قبل ان تغلق الباب الذي يصل الغرفتين.

فقال الرجل بشراسة:

«هل جاء معك احد غير هذه الطفلة؟»اجابت بصراحة بعد ان فوجئت قليلا:«كلا. بالنسبة الى ديانا والي، حيثما نكون نحن معا، يكون منزلنا.»

ملأ وجه جنيفر استرخاء كبير. رمقها بنظرة غاضبة وعضلات فمه ترتجف بقوة كأنه يحاول ان يقاوم شرا مؤذيا. فقال:«هذا العجوز محتال

www.liilas.com

لكن، بالرغم من هذه الظروف،لن اغير رأيي.»
لم يتسن لها الوقت لتسأله عن تفسير وايضاح.
فقد اسرع نحو الباب وخرج الى الممر بخطوات واسعة تعبر عن غضبه.

الفصل الرابع

فجأة، دق الجرس معلناً موعد العشاء. تمالكت جنيفر نفسها لئلا تهرب. في الحقيقة، لم تعد تنوي البقاء هنا في المزرعة، غير ان مواجهة صريحة مع السيد البير اصبحت مهمة حتمية ولا مفر منها. عليه الآن ان يشرح لها الامور بوضوح، وان يتصرف بنبل ويقدم اليها اعتذاره، لأنه رسم لها صورة كاذبة عن حفيده، بعيدة كليا عن الحقيقة والواقع.
هبطت السلالم بسرعة وعصبية. ولما وصلت امام باب الصالون توقفت مترددة، ثم استجمعت قواها وكل ما تبقى لديها من شجاعة وقررت ان تفتح الباب وتدخل قاعة الاستقبال.
فوجئت بوجود السيد البير وحده. كان مستغرقاً في افكاره وكئيبا في. ولما دخلت القاعة، وقف يستقبلها. لم تلمح في وجهه اي اشارات للندم.
«انت رائعة حقا. لي الشرف ان ارحب بك في بيتي واكرمك على مائدتي. منذ زمن بعيد لم تدخل منزلنا فتاة جميلة مثلك.»
توترت جنيفر وخشيت ان تخور عزيمتها وتتخلى

www.liilas.com

عن تصميمها الذي قطعته على نفسها برفض الزواج من حفيده، مهما كلف الامر.

«هذا لطف منك يا سيدي. غير انه عليك ان تسامحني اذا قلت لك ان هذه المجاملات وهذا الافراط في المديح الذي تنعم به عليّ يبدو لي عديم الجدوى مثل بعض تصريحاتك الاخيرة.»

استقام في جلسته وتوارى التغضن المرير عن وجهه واعلن بصراحة:

«نعم عليّ الاعتذار منك يا آنسة. ربما كان اخفاء الخطر اخطر من الكذب المتعمد. لكن بانتظار المناقشة في كل هذا، اسمحي لي ان اقدم لك شرابا منعشا. بامكاننا ان نتناول العشاء بعد قليل. لأنه اذا وجدت نفسك في ارتياح واسترخاء، ستتذوقينه افضل.»

قبلت ان تتبعه الى المقعد حيث جلست ونظراتها المليئة بالخوف كانت منجذبة تلقائيا نحو الباب.

عرف السيد البير ما يدور في خلدها فهمس يقول:«استرخي. حفيدي ليس في المزرعة مساء اليوم. ذهب الى المدينة برفقة بعض الرعاة. ولن يعودوا قبل الفجر وستسمعين ضجتهم الاعتيادية اذا لم يكن نومك عميقا.»

شعرت جنيفر بارتياح واسترخت في مقعدها

بين الوسائد المحيطة بها. فابتسم السيد البير لرد فعلها وقال:«اذن، لقد اتيحت لك فرصة لقاء حفيدي.»

اعترتها قشعريرة باردة وقالت:«ما حدث بيننا لم يكن ما تسميه باللقاء. لقد احتجزني ووشمني للحال كما تفعلون بالماشية.»

كان السيد البير منهمكا في إحضار الشراب الذي رفضته، فقاطعها فجأة وردد وهو مقطب الحاجبين:«وشمك؟»

«وشمني مثل اي امرأة سلعة، يا سيدي. وبرأي حفيدك، انا امرأة لا مكان لها هنا، ومصيرها متعلق بمن اشتراها، يعني انت.»

قال بغضب:«لو كان ما يزال صبياً، لقاصصته على هذا الكلام البذيء.»

«لكنه لم يعد صبيا. وفي كل حال، الظاهر انه على حق. ان تختار بنفسك امرأة لتزوجها من حفيدك الخجول والمرتاب، ليس هذا العمل بعيدا عن الخيال. لكن حفيدك ليس بالرجل الخجول والمرتاب، وما فعلته عديم الفائدة! لا يمكنك ان تجهل ان مبادرتك هذه ستجعله يغضب بعنف.»

جلس قربها واكتفى باطلاق زفرة عميقة. لا شك

www.liilas.com

انه نادم على ما فعله. لكن على ماذا هو نادم بالتحديد؟ على فشل مخططه، ام على الضرر الذي الحقه بحفيده وبها؟

قال بلهجة متوسلة:«اذا قبلت سماع ما سأقوله، سترين ان تصرفي هو اقل انانية مما كنت تتصورين.»

«وما الفائدة بعد الآن؟ بعدما باح به حفيدك، اصبح كل شيء واضحا. انت مربي ماشية معروف ولا احد ينكر نجاحك الباهر في هذا المجال. لكنك توصلت الى الاقتناع انه بامكانك تحقيق تجاربك على الكائن البشري. وشيئاً فشيئاً توصلت الى مشروعك وهو ان تحقق اتحادا كاملاً لزوجين مثاليين. غير انك بذلك ارتكبت خطأ جسيما، فيما يتعلق بنا. حفيدك رجل غليظ وفظ. واذا كان هذا غير كاف، فانه يرجع كل شيء اليه. وهذا ما اكده اكثر من اي شيء آخر.»

لمع بريق باهت في نظرات السيد البير وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجهه. فوجئت جنيفر برد فعله وانزعجت بعض الشيء، نهضت مسرعة، لكنه مد اليها يده واعلن بلهجة هادئة قائلا:«سامحيني، يا عزيزتي، لكن سبق وسمعت

هذا الكلام من قبل، وبالحماس والصدق نفسهما. ذلك ان المرأة التي اصبحت كنتي كانت تتكلم مثلك تماما. وبالنسبة اليها، عليّ ان اقول صراحة اني احتجزتها في المزرعة بنية تزويجها ابني. ستقولين اني ما زلت في الهاجس نفسه. وابني كان رجلا ذا طباع غريبة. لا يمكن قهره بسهولة، ولا يختلف عن حفيدي الذي شاهدته اليوم. كان يفضل العمل برفقة الرعاة وكان يحسدهم على حريتهم. ولم يكن هو الذي يتحمل مسؤولية ادارة وحراثة هذا المشروع الكبير، الذي اعتبره دويلة كبيرة داخل دولة. كل المسؤوليات والهموم والاعباء التي تنبثق عن هذا الثقل اتحملها وحدي انا! وكان هناك العديد من الفتيات من العائلات الرفيعة اللواتي كن يتمنين الزواج منه. لكنه لم يكن مباليا الا بالنساء الأقل احتراما، اللواتي يصادقنهن الرعاة في حانات المدينة. وهذا ينطبق الآن على حفيدي واصدقائه.»

ران صمت طويل ثم تابع يقول:«لم اختر هذه الفتاة بنفسي. لقد وصلت الى هنا بطريق الصدفة، لكن، يجب ان اعترف لك انني منذ رأيتها، خطرت ببالي فكرة. واردت ان انقذها بتسهيل اللقاء بينهما الى ابعد حد. في البداية

www.liilas.com

كانت اللقاءات تتم في مناخ عدائي. لكني فرحت كثيراً عندما علمت ان العلاقة بينهما بدأت تتوطد تدريجيا. وكما توقعت، اخذا يشعران تجاه بعضهما البعض بالحنان الذي تحول فيما بعد الى حب كبير. وبالتالي تغير طبع ابني بشكل كلي. وعرفا معا سعادة كبيرة. ولا يمكنني ان اعبر لك بالكلمات ما شعرت به عندما علمت بالمأساة. لذلك ارغب من كل قلبي ان يقدم جاك، ثمرة هذا الحب، على زواج سعيد وان يسعد مثل والده. هذه هي امنيتي الوحيدة، لا يمكنك ان تلوميني ان اقدمت على تحقيق هذه الامنية.»

اقتربت جنيفر من المدفأة وانحنت صوب النار المتوهجة التي انعكست على وجهها حيث ظهر تشوش عميق وارتباك وحيرة. انها تشعر نحوه بالشفقة، لأنه يعتبر نفسه ذلك الحاكم المستبد بمملكته الصغيرة ومقتنع بقوته اللامتناهية. كان الامر مضحكا ومؤسفا في الوقت نفسه. السيد البير، ملك المزارعين، سيتقاعد آملا ان تصبح هي ملكة المزرعة. فشعرت بالتواء ساخر ومر في فمها، غير ان ملامح وجهها حافظت على الوقار والرصانة عندما التفتت الى العجوز الذي كان

جالسا في مقعده منحنيا الى الامام ويده على ذقنه.

لم تكن تريد ان تجرح شعوره، فأعلنت بلهجة متزنة قائلة:«آسفة، سيدي، لكنني غير قادرة على قبول ترتيباتك.»

هز رأسه احتجاجا فأضافت في الحال بحزم كبير:«نعم انها ترتيبات. كل انسان حر ان يتصرف بحياته كما يراها مناسبا ان كان هذا الانسان حفيدك ام اي شخص آخر. انا متأكدة باقتناع انك لا تفعل ذلك بأنانية وانك تتمنى بكل اخلاص سعادة جاك، لكن...»

توقفت لحظة ورمقت العجوز بنظرة صافية وسألته:«هل فكرت بأن النجاح الذي احرزته في ما يتعلق بابنك كان مجرد حظ، وان هذا النوع من التجارب لا يمكنه ان يؤدي الى النتيجة نفسها؟»

لم يعد يحتمل الشك بقدرته فقال بغضب شديد:«الطبيعة الانسانية لا تتغير، ، الاجيال تتلاحق والسنوات تمر والانسان ما زال ينقل الى اولاده الطباع والعاهات والفضائل والعيوب نفسها. في عروقي يجري دم الغزاة الاول. فقد ورثت عنهم حب المغامرة، وكراهية الخوف

www.liilas.com

والانانية والعنفوان. وكان ابني يتمتع بهذه الصفات واليوم اراها عند حفيدي. ولهذا السبب افهم تصرفاته تماما. ان ردات فعله تشبه ردات فعلي، ولهذا السبب انا متأكد ان ما اقدمت عليه ليس خاطئا ولا يقبل بالفشل.»

قالت جنيفر بهدوء وهي تضم بشدة يديها المرتجفتين الى بعضهما:

«لكن ما حدث يؤكد استحالة مهمتك، مخططك باء بالفشل لأنك نسيتني بكل بساطة، وانا ما ازال موجودة، من دوني لا يمكنك ان تحقق اهدافك، اني ارفض الاشتراك في هذه الترتيبات وآمل ان تعفيني من تحقيق العهد الذي قطعته. اتمنى العودة الى بلادي باسرع وقت ممكن. ولا سبب لأن ارى حفيدك بعد الآن.»

وضع السيد البير كوبه على الطاولة بهدوء، ثم اقترب منها بتعال، فتهيأ لها انها خادمة امام معلمها. كان ينظر اليها بتفصيل يقيسها مطولا ثم قال بلهجة باردة ومراعية:

«اخشى ان يكون ما تتمنيه مستحيلا. اذكرك بأنه سبق وعقدنا صفقة لا مجال للتراجع عنها. هذه الملابس التي ترتدينها، وهذا المنزل الذي تسكنينه، انت واختك، دليل قاطع،

ويحق لي ان انتظر منك امتثالا وطواعية.»

سكت لحظة ثم اضاف:«وكما لاحظت فالمزرعة بعيدة عن العالم. اذن، لا مجال ان تأملي في الهروب والرحيل. انها اضاعة للوقت. كي تخرجي من هنا عليك ان تأخذي الطائرة. وتلك التي نملكها لن اضعها تحت تصرفك. عليك اذا ان تبقي هنا، شئت ام ابيت.»

اطلقت نواحا عميقا وشحب وجهها وقالت بغضب:«بامكانك ان تعتبرني سجينة لديك، لكنك لن تتوصل ابدا لأن تجعلني اتزوج حفيدك بالقوة.»

اجاب السيد البير من دون اضطراب كأن شيئا لم يكن:«في البداية، المرأة التي جاءت قبلك كانت تفعل مثلك في جميع تصرفاتها. ورد فعلك هذه لا يمكنها الا ان تؤكد لي نجاح مهمتي. ولذلك انا مسرور جدا.»

القمر يشع بنوره على سرير جنيفر حيث ارتمت منذ ساعات بعدما هرعت راكضة من قاعة الاستقبال، حانقة على السيد البير وخائبة لحظها السيء. فقراره الذي لا رجوع عنه وضعها في حالة حزن وكآبة. والآن تعتبر هذا المنزل سجنا وهذه الغرفة زنزانة حيث بامكانها

www.liilas.com

ان تتأسف على مصيرها وتندم. شدت على معصميها وانزلقت تحت الاغطية وراحت تنتحب باكية وتصرخ:«انا مجنونة. حقا مجنونة. لماذا لم يخطر ببالي انني بقبول هذه الصفقة، رميت نفسي في مأزق؟»

صحيح انها استعدت لقبول كل العواقب التي ستنتج عن هذا القرار، لكن الرجل الذي قبلت العرض منه لم يظهر عن حقيقته الا اليوم.

كبتت دموعها ونهضت من السرير وخلعت فستانها بقسوة، هذا الفستان الذي هو هدية من السيد البير. وشعرت جنيفر بالخجل لما فعلته رغم انها تعرف ان سبب ذلك يعود الى ديانا غير انها احست بالاشمئزاز من تصرفها.

كان ذيل قميص نومها الشفاف يمسح ارض غرفتها ذهابا ايابا ثم جلست قرب النافذة وظلت مسمرة مكانها مدة طويلة كالبلهاء. فجأة سمعت خشخشة صغيرة وبعدها عم صوت عميق. ثم اقنعت نفسها بأن ما سمعته ليس سوى وهم من مخيلتها. لكنها سمعت الخشخشة نفسها مرة ثانية. فالتفتت جنيفر حولها وفتحت عينيها جيدا تبحث في ظلمة الغرفة علها ترى شيئا. فلاحظت ظلا يتحرك ويقترب منها. ارتعبت ولم

تجرؤ على القيام بأي حركة. بريق معدني لفت نظرها على ضوء القمر الشحيح رأت البكلة الفضية المعلقة بالحزام الجلدي الاسود فعرفت من يكون صاحبها، استعادت صوتها وقالت باستغراب:«ماذا تريد؟ كيف سمحت لنفسك بالدخول الى غرفتي من دون اعلامي، سيد جاك؟»

قهقه ضاحكاً واقترب منها بترنح وشعرت بنفسها على وشك السقوط. وقال ساخرا:«انا بحاجة للحديث معك. في الحقيقة، فكرت مطولا بالوضع الدقيق الذي وجدنا انفسنا فيه، واعتقد انني عثرت على حل لذلك.»

ادركت من العطر الخفيف الذي يرطب قميصه انه لم يقض الليل وحيدا. قالت:«انا ايضا، اخذت قرارا نهائيا. قررت ان ارحل من هنا واريد ان تعدني بمساعدتي في العودة الى بلادي.»

امسك كتفيها بشدة. وراحت ترتعش عندما بدأت يداه تمتدان الى جسمها، لكنها ظلت جامدة رافضة ان ترجوه الا يفعل ذلك.

قال صارخا:«هذا مستحيل! انه يعكر مخططي، اليك ما انوي فعله:سأتزوج منك، لكن عليك الا تعتقدي اني سأفعل ذلك لأني اخضع لارادة

www.liilas.com

جدي، ابداً. اريد ان القنه درساً وابرهن له ان زواجاً مدبراً بهذه الطريقة لن يؤدي الا الى الفشل، الفشل الذي سيؤلمه كثيراً. صحيح اني بزواجي سأحقق له امنيته العزيزة على قلبه، لكن عليه بالمقابل ان يفي بوعده.»

بالكاد نطقت جنيفر قائلة:«وعد؟ اي وعد؟»

«ان يعهد الي ادارة المزرعة بكاملها. لا اريد شيئاً آخر. لقد اشتغلت كثيراً بلا هوادة لأنني اعرف ان ملكية هذه المزرعة ستكلفني عذابات شتى! واخيراً وضعني جدي امام الامر الواقع: الزواج ام خسارة المزرعة. وليس فقط الزواج انما هو الذي سيختار العروس! واذا رفضت سوف يحرمني من الميراث. لكننا سنحتال على هذا الثعلب الماكر، لندعه يعتقد انه سيد الوضع. فقد اصبح عجوزاً ولن تدوم سيطرته الى الابد.»

ارتعشت امام لهجته المحزنة، فأضاف يقول:«بعد بضع سنوات، سيموت، وكل واحد منا يذهب في طريقه. لكن في الوقت الحاضر ارغب ان نتزوج. سيكون الاحتفال شكلياً ولن يربطنا اي قسم طبعاً لن اغير تصرفي وبالنسبة اليك، اعتقد ان الزواج واللقب الذي ستنالينه سيكون

عزاء كافياً. سأتجرأ وأسألك، الست زوجة سبق وعاشت من قبل خبرة الزواج، اقصد بذلك انك كنت ملكاً لرجل آخر؟»

هذه الملاحظة الاخيرة كانت بالنسبة الى جنيفر صفعة حقيقية. شعرت فجأة تجاهه باشمئزاز وحقد وضغينة، الى درجة انها كادت ان تبوح له بحقيقة ديانا، فقط من اجل ان يعتذر عن هذه التهمة. غير ان غريزتها نبهتها الا تقدم على فعل كهذا. وتبين لها بوضوح ان جاك لا يمكنه قبول كون زوجته قد تزوجت من قبل. ولهذا السبب، فهو يتعذب بانانية وعنفوان لأنه سيضطر قبول ذلك ولو بصورة شكلية.

ظلت جنيفر صامتة فأسرع يقول:«اذن، ما رأيك؟ هل انت مستعدة لمساعدتي لمواجهة جدي العجوز؟»

فسألته قائلة ببرود وحقد:«ايمكنني الاختيار؟»

ظل جاك مسمراً عينيه الثاقبتين في وجه الفتاة الشاحب وهو ما زال ممسكاً بها. وجنيفر تحاول جاهدة ان تظل هادئة وغير مبالية. اطلق ضحكة ساخرة وقال:«هذا الجمال الذي تتحلين به لا يبدد ضجري ولا يؤثر بي. في بلادنا، النساء لسن باردات، بالعكس، انهن شغوفات. لذلك فلا

www.liilas.com

تخافي مني، بصفتي زوجك في المستقبل: لن احاول ابدا ان اتقاسم فراشك، هل هناك اسوأ من عناق كتلة جليد؟»

وللحال ابعدها عنه بعنف، فقالت بغضب:«افهم اشمئزازك. انا اشعر نحوك بالشعور نفسه، يؤلمني ان ارى نفسي في غرفتي بصحبة رجل تفوح منه رائحة العطر.»

اصابته في عزة نفسه وكانت رد فعله ان حملها من دون اي جهد وجذبها نحوه بشدة قائلا واسنانه تصطك:«أمرك ان تعتذري مني والا ستندمين عما قلته.»

قالت وهي تتخبط للتخلص منه:«اتركني. ابتعد عني.»

«ليس قبل ان تعتذري على ما قلته الآن.»

«وعن ماذا تريدني ان اعتذر؟ لأني قلت الحقيقة؟ لم اطلب منك ان تعتذر مني عندما شتمتني، انت الرجل النبيل.»

ابعد رأسه الى الوراء واطلق ضحكة ساخرة ومتعجرفة وقال:«لم اعتبر نفسي ابدا رجلا نبيلا، هذا النوع من الرجال الضعفاء الذين يمضون معظم أوقاتهم في النوح، لا اعتقد ان هذا النوع من الرجال يعجبك»

«اني افضل الرجال الذين لا يستعملون القوة الا بعد ان يجربوا كل وسائل الاقناع الاخرى.»

«اني افكر عكس ذلك. فالتصرف بهذه الرقة يرهق من دون جدوى. من الافضل استعمال القوة منذ البداية.»

وكي يدعم قوله، ضمها نحوه بشدة غضب بارد كأنه يريد ان يعاقبها ويحقرها. وتذكرت جنيفر ما قاله في ما يخص نساء تلك البلاد، فارغمت نفسها على البقاء جامدة من جليد. وهكذا، ببرودها التام، تؤكد له رفضها الدخول في لعبته، وفي الوقت نفسه تظهر له عن كرهها واحتقارها لغلاظته.

ومن دون اظهار اي ندم، ابعدها عنه ثم ابتعد بخطى فخورة، ولما وصل الى الباب اعلن قائلا:«حافظي على العناق لنفسك، يا ايتها الأنسة الباردة، لا اعرف اذا كان واجبي الاعجاب بذلك الرجل الذي توصل ان يجعل منك امرأة كاملة واما لطفلة، ام يجب ان اتأسف عليه.»

www.liilas.com

الفصل الخامس

بعد اسبوع، بدأت الاستعدادات للاحتفال بزواج جاك وجنيفر في صالة صغيرة تابعة للمزرعة. واختصر عدد المدعوين الى الحفل بسبب قصر الوقت، فكان الحضور مؤلفا من الاقرباء والاصدقاء المقربين.

وقام السيد البير بتدبير المعاملات الرسمية الضرورية. فقد فوجىء بتقلب آراء جاك من جهة، وباصرار جنيفر عليه الا يبوح لحفيده بحقيقة امر شقيقتها ديانا.

حينذاك قال :«ولماذا، يا صغيرتي؟ كوني انسانة طيبة وتفهميه، وانتشلي هذه الشوكة من خاصرته. لماذا لا تنقذيه من الشكوك التي تزعج خواطره وتؤلمه؟»

أجابت بجفاف:

«ليست في نيتي ان اكون طيبة معه. أنت رفضت فك ارتباطي وارغمتني على قبول هذا الزواج. لكن هناك شرط اريد منك ان تحترمه وهو الذي يتعلق بديانا. فاذا بحت بهذا السر لن يتم الزواج.»

بالنسبة الى السيد البير، كان ما قالته تفصيلا لا يستحق التوقف عنده. رأى نفسه على مقربة من تحقيق اهدافه وغير مستعد للتوقف عند امور تافهة بإمكانها ان تفسد مخططاته.

اجابها قائلا:«اتفقنا. ما دمت مصرة على ذلك.»

حك ذقنه مفكراً، وسرعان ما انارت الابتسامة وجهه وقال:

«ربما تصلين الى تحقيق اهدافك، اذ مازلت تصرين على هذا الشرط. انت امرأة ذكية وأنا لست بغبي. فجاك بحاجة الى سبب متين كي يقبل بالزواج. هل احس بالشفقة نحوك؟ ام انه شعر بانجذاب باطني من دون ان يعي ذلك؟ هذا ما اجهله. على كل حال انا مستعد ان ارتكز على حدسك كي اضرم عواطفه واوقظ عنده المشاعر الودية. نعم، يا عزيزتي، حافظي على هذا السر مهما كلف الامر وبجميع الطرق، فعائلة بلإن يتميزون بحب التملك والغيرة، وخصوصا الرجال. بوجود شقيقتك الصغيرة سيظل يتذكر باستمرار انك كنت في الماضي زوجة لرجل آخر.»

وبينما كانت جنيفر ترتدي ثوبها المخرم، حالمة

www.liilas.com

مترددة، ايقنت بانها ستغدو رمزاً لتلك المرأة التي سبق لها ان تزوجت من قبل وهي الآن على استعداد لخوض هذه المغامرة مرة أخرى. ورددت في ذهنها قائلة: اليس هذا ما كان يقصده السيد البير؟

ولحفل الزواج اختارت جنيفر ثوباً ابيض واسعا مبطنا بالحرير، اظهرت اكمامه الشفافة بشرتها المخملية الناعمة. ورفعت شعرها الاشقر الطويل جدائل بشكل تاج ذهبي، وزينتها بالزهور البيضاء التي خففت من رصانة تسريحتها. لكن عينيها الكئيبتين وملامحها المشدودة وشحوب وجهها كانت كلها تعبر عن خوف أليم وحذر عميق. لم تغادر غرفتها منذ الصباح. ومن النافذة المفتوحة كانت تسمع اصوات المدعوين الذين قصدوا المزرعة من بعيد، معظمهم استقلوا الطائرات.

كان ا لمنزل يعج بالناس. لكن جنيفر تملكها الحذر ولم تغامر بالظهور امام المدعوين، لأنها تعرف جيدا انها ستكون نقطة اهتمامهم. كما كانت متمسكة بقول قديم مفاده ان لقاء الخطيب مباشرة قبل حفل الزواج لا يجلب الحظ.

بعد قليل دوت اصوات محركات السيارات

المتجمعة تحت الشرفة، شعرت جنيفر بتقلص مؤلم في معدتها. فلم تتناول سوى الطعام الخفيف وبعض القهوة، برغم تحذيرات الخادمة. ومع آخر سيارة تبتعد عن المزرعة، احست جنيفر فجأة بضعف فاستندت على ظهر كرسي بجانبها. وفجأة سمعت طرقا على الباب فراح قلبها يخفق بسرعة. وبعد لحظات قالت متلعثمة: «ادخل.»

ظهرت سارا الخادمة، حمراء الوجه، وكثيرة الحماس وسلمتها قطعة قماش طويلة من الدانتال الكريمي اللون وقالت: «الطرحة يا سيدتي. سبق وارتدتها من قبل كل العرائس اللواتي ينتمين الى عائلة بلان.»

فرجعت جنيفر الى الوراء بشدة وقالت: «لا، شكرا. لن احتاج اليها.»

فتحت سارا عينيها السوداوين متعجبة وقالت بغضب: «لكن، يجب ان لا تلتقي بالعريس وانت مكشوفة الرأس! يجب على العروس ان تصون وجهها وتحميه من نظرات المتطفلين.»

وضعت سارا الطرحة على رأس جنيفر من دون ان تترك لها مجال الاعتراض ثم سوت اطرافها المطرزة فوق الخدين الشاحبين وصرخت:

www.liilas.com

«رائعة انت هكذا، هل اعجبتك؟»
قالت الفتاة غصبا عنها:«نعم انها طرحة جميلة. لكن الن يفاجأ السيد البير برؤيتي اعتمر هذه الطرحة الناعمة والثمينة؟»
هزت سارا رأسها بحماس وقالت:«لن يرفض سيدي شيئا لزوجة حفيده الجميلة.»
الزوجة الجميلة! خفق قلبها وتحسرت. فأضافت الخادمة المتألقة تقول:
«الجميع ينتظرك. لم يبق احد هنا غيرنا.»
سألتها جنيفر بصوت مخنوق:«وجاك، اين هو؟»
قالت سارا وهي تكبت ضحكتها:«في الصالة من دون شك. لا شك انه في انتظارك بفارغ الصبر. امامك دقائق معدودة. لنذهب الآن.»
هبطت جنيفر السلالم ببطء وقدماها ترتجفان. وظلت متمسكة بالدرابزين لئلا تقع او تفقد توازنها. المنزل كان خاليا كليا والجو مازال يعبق برائحة السجائر وعطور النساء. كان السيد البير ينتظر بهدوء داخل الصالون. وما ان سمع وقع خطوات الفتاة حتى التفت الى الوراء واعلن بلهجة دافئة:«انت حقا رائعة، يا عزيزتي. وجميع اصدقاء جاك سيحسدونه عليك.»

«جذبها نحو النافذة. امامهما تمتد الحديقة المشعة بالشمس الحارة. تركها الكونت هناك بضع دقائق وراح يفتش في درج مكتبه. فارتعبت جنيفر عندما سمعته:«هذه هدية العرس. وسأسر لو تفضلت ووضعته خلال حفل الزواج.»
فتح العلبة واخرج منها عقدا من اللؤلؤ ودعاها للاقتراب نحو المرآة.
قالت بصوت جامد:«اشكرك. انه لشيء رائع. لكن بما انك الآن على وشك تحقيق امنيتك العزيزة لم تعد بحاجة لأن تقدم لي الهدايا الثمينة. لقد اعطيتني مسكنا، لي ولديانا، ولا اريد اكثر من هذا.»
كان في الوقت الحاضر مستعداً لان ينسى كل شيء. لكن ما قالته الآن ذكره بالصفقة فقطب حاجبيه وقال:«ارجوك ان تقبلي هذه الهدية التي ليست سوى شكر وعرفان بالجميل من قبل رجل عجوز سعيد ان يستقبلك داخل عائلته وان يجعلك واحدة منها. ولهذا ارغب منك ان تناديني جدي، ما دمت ستصبحين بعد لحظات قصيرة زوجة حفيدي. ويشرفني ان تعتبريني جدك، انت وديانا. وعليّ ان اقول لك من دون مواربة، بأن ديانا لفتت انظار ومودة الجميع، في اقل من اسبوع.»

www.liilas.com

ابتسامة عابرة مرت على شفتي جنيفر. في الحقيقة، لقد تهافت على ديانا المعجبون الشغفون الذين احاطوها بالاهتمام التام، وهي فهمت بطريقة سرية انها ستبقى في المزرعة بصورة دائمة. وكان السيد البير يغتنم الفرص ليحمل الطفلة بين ذراعيه ويكلمها. والخادمتان سارا وشيلا تلبيان رغباتها. بينما كان جاك يردّ على مبادراتها بابتسامة بطيئة.

وكلما تواجد جاك بجوارها، لا تعود الطفلة تهتم الا به وتظل ترمقه بعينيها الواسعتين الزرقاوين. وكانت ترسل اليه القبلات بالحاح تجعله مضطرا ان يرد عليها بالمثل او ان يهز لها رأسه هو الذي لم يتعود على وجود اطفال بقربه. غير ان جنيفر لاحظته مرة من دون معرفته بينما كان يلاعب ديانا بالطابة. وبنهاية اللعب راح يداعبها بلطف وحنان ويلامسها تحت الذقن حتى كادت الطفلة تقهقه من شدة الضحك.

اصر جاك على ان تحضر ديانا حفل الزواج. فاصطحبتها الخادمة قبل موعد الاحتفال بعشر دقائق. وكانت ترتدي فستانا ناعما من الازرق الفاتح يليق بلون عينيها، وشريطة زرقاء تزين خصلات شعرها.

«تعالي يا عزيزتي، حان لنا الوقت للذهاب.»

فجأة افاقت جنيفر من احلام اليقظة لكن السيد البير اضاف قائلا:

«اني في غاية الامتنان لأن اسمح لنفسي ان احل، في هذا اليوم، مكان والدك الذي فقدته منذ فترة وجيزة.»

تلألأت الدموع في عينيها، لكنها تمكنت من السيطرة على انفعالها. انها تخضع لسحر هذا الرجل العجوز، لكن عليها ان تتذكر باستمرار قساوته نحوها. كان عليها ان تشعر بالغضب نحوه، لكن في هذه اللحظة بالذات لم تكن تشعر لا بالحقد ولا بالمرارة.

خرجا الى الشرفة ومن هناك توجها نحو السيارة. في هذا الوقت اسرعت ديانا نحو جنيفر وعيناها مبللتان، فضمتهاسارا اليها بعاطفة كبيرة وقبلتها على الخدين وهمست لها ببعض الكلمات باللغة الاسبانية. فهذا التصرف الامومي من قبل الخادمة جعل جنيفر تضطرب بعمق. لكم كانت جنيفر تتمنى ان تكون والدتها على قيد الحياة وتكون بجانبها في هذا اليوم التاريخي. اجتاحها انفعال قوي وانهمرت الدموع من عينيها. وفكر السيد البير وهو يراها

www.liilas.com

ان نظراتها الزرقاء الجميلة قد تعكرت، مثل بحيرة حين تعصف الريح وتبدأ العاصفة.
قدم لها منديلاً، لكن العاصفة لم تهدأ فاضطر ان يذكرها قائلاً:
«المدعوون بانتظارنا، يا عزيزتي وكذلك جاك. والصبر ليس من فضائله.»
كفكفت جنيفر دموعها ورفعت ذقنها بشجاعة وقالت بصوت مطمئن:«المعذرة. اني مستعدة الآن.»
اعجب السيد البير بقوة ارادتها واعترف في داخله ان الفتاة تتمتع بذكاء وجرأة.
ظلت سارا تلوح بذراعها حتى اختفت السيارة عن الانظار. ثم صعدت السلالم المؤدية الى الشرفة المزينة باناقة لهذه المناسبة. كان عليها ان تبقى في المنزل كي تشرف على تحضير مأدبة الغداء الذي سيقدم للمدعوين.
وفي طريقها الى الصالة لاحظت جنيفر وجود شرائط القناديل الملونة المصنوعة من الورق، معلقة بين الاشجار. لا بد ان العشاء الفاخر سعيد للرعاة وعائلاتهم وسيتم هناك تحت هذه الزينة.
فجأة دوت الاصوات من جميع الجهات وظهر

الفرسان من وراء غيمة غبار كثيفة واحاطوا السيارة. كانوا يطلقون الصياح والصغير. وفي صفوف مشدودة جاء الرعاة ليؤلفوا الموكب. وصلوا الى اسفل السلالم التي تؤدي الى الكنيسة وظلوا يطلقون صياحهم الثاقب.
وعندما ترجلت جنيفر من السيارة، خلعوا قبعاتهم العريضة في تحية ساخرة. فهزت الفتاة بخجل رأسها، ثم دخلت متأبطة ذراع البير، وراح الارغن يعزف مقطوعة رائعة. وفي خطى بطيئة توجها الى حيث كان جاك بانتظارهما.
لعبت جنيفر دورها بغاية الكمال وكأنها في حلم. وبالكاد شاهدت الزينة الفاخرة والجمهور الغفير على المقاعد والكراسي. الرجال يجلسون باعتزاز قرب زوجاتهم اللواتي يرتدين الملابس الانيقة والفاخرة.
كان شبح جنيفر النحيل تغمره اشعة الشمس الملونة التي تتسرب من خلال الزجاج، وبهدوء ظاهري، لفظت امنياتها بصوت صارم ومن دون انفعال، لم ترتجف ولم ترتعش، عندما ردد جاك برباطة جأشه واتزان الكلمات قائلاً:«اني اقسم لك بالاخلاص والحماية والحب حتى يفرقنا الموت.»

www.liilas.com

اطلقت زفرة عميقة. ليس ما يقوله سوى كذبة صغيرة. لأن موتا آخر، موت السيد البير، هو الذي سيجعلهما احرارا من جديد. فهي لا تشك بأن جاك سيفي بوعده بالحاح وبسرعة.

انغلقت يد جاك الطويلة والقاسية على يد جنيفر ووضع خاتم الزواج في اصبع يدها اليسرى. فارتعشت رموش عينيها وتشابكت نظراتهما ولمحت جنيفر في نظرته لمعانا ساخرا، فحولت عينيها بسرعة.

اقترب السيد البير ليقبلهما. ولم تنتبه الا في هذه اللحظة بالذات ان مراسيم الزواج اشرفت على نهايتها، فاسترخت قليلا. وبينما كانت خارجة متأبطة ذراع زوجها، راحت تبتسم للجمهور. وما ان اصبحت في الخارج، حتى ارتفع صراخ التهنئة وسطعت أشعة الشمس البراقة، فلم تمنع نفسها من اغماض عينيها.

ضحك جاك ودفع بجنيفر نحو السيارة. لكن زوجات الرعاة ابدين اصرارا على رؤية العروس من قريب فتجمهرن وراءها. واذا بجاك يحملها ويدفعها داخل السيارة. احمرت وجنتا جنيفر مما زاد في حماس الجمهور الذي صرخ يقول:«قبلها، قبلها.»

وبالفعل اطاع جاك. فاخرج زوجته من السيارة واوقفها في قسوة افقدتها نفسها. ثم امسكها بعنقها وجذبها نحوه وقبلها. ثم دفعها داخل السيارة من جديد ودخل وراءها. وتمكن بصعوبة من اغلاق الباب بسبب الجمهور الذي تجمع حولهما. سارت السيارة وافاقت جنيفر من الارتباك والخجل من جراء هذه القبلة وحدقت بعيني جاك السوداوين وصرخت تقول:«ليس في الصفقة التي عقدناها ما يسمح لك ان تتصرف على هذا النحو، ان تعاملني كالفتيات اللواتي تمضي معهن بعض الوقت في الحانات الوسخة في المدينة. كيف تجرؤ على ذلك؟»

اختفت ابتسامة جاك وقال بجفاف:«بدأت تذكرينني بتلك الزوجات اللواتي لا يكففن عن التذمر. يضاف الى هذا، اننا لم نعقد اي صفقة. لقد طلبت مني ان اتزوجك.»

واضاف قائلا:«لقد قلت لك انك ستتزوجينني. غير اني اعترفت ان لديك بعض الحقوق بصفتك زوجتي. اذا كان خروجي الى المدينة برفقة النساء يزعجك فإني مستعد ان اتخلى عن ذلك. في كل حال، لم يعد هناك اي سبب كي اتمادى في هذا. تبدأ الهموم مع الزواج. لكن العزوبية

www.liilas.com

لا تجلب الفرح. والآن، بما اننا متزوجان، فمن واجبك ان تخففي عني هذا الحمل.»

بعد قليل راح العروسان يستقبلان المدعوين على مدخل الصالون.

كان الفضول يحتلهم فراحوا يراقبون العروسين خفية ويتلفظون بالملاحظات الخاطفة باصوات منخفضة ولدهشة جنيفر اقترب جاك من شيلا وامرها قائلا:«اذهبي وانضمي الى اصدقائك وتمتعي بوجودك معهم مدة ساعة، وسنهتم نحن بالطفلة.»

امسك ديانا بين ذراعيه وفي الحال اشرقت عينا الطفلة الزرقاوين وراحت تضحك وتلامس بيديها جاك السمراوين. ولشدة دهشتها رأت جنيفر زوجها يتجاوب مع اهتمام اختها الملح وخلال لحظات قصيرة تغيرت ملامح جاك. فمه القاسي ونظرته الساخرة ورصانته المتعالية، كلها امتلأت بحنان كبير. فشعرت بارتباك لم تصدق ان هذا الرجل الفظ والعنيف والحازم بامكانه ان يتمتع بهذا الحنان وهذه النبرة اللطيفة.

ولما بدأت ديانا تلعب بشعره الاسود المشعث، راح جاك يقهقه ضاحكا بصوت مرتفع، مما لفت نظر الحضور كله. وفي هذا الوقت بالذات دخل

جده الى الغرفة متأبطاً ذراع امرأة عجوز ذات شعر ابيض وقوام نحيل. كانت ملامحها متعالية ومتحفظة ومتشامخة، مما يدل على انها تنتمي الى بيئة اجتماعية كالتي ينتمي اليها رفيقها. وتدريجيا عم الصمت في المكان. كل انسان حبس انفاسه. شعرت جنيفر باضطراب داخلي وتوتر عميقين واستعدت لتحمل هذا اللقاء.

تقدمت المرأة العجوز المتكئة على عكازها من العروسين بخطى ثقيلة وتوقفت قربها. فبدأ السيد البير بتقديم العروس والطفلة، لكنها ردعته بحركة سريعة وقالت بلهجة متحدية:

«ها انت يا جاك تتحمل اعباء عائلة بكاملها، زوجة وطفلة. يتهيأ لي لدى رؤيتك ان هذه الطفلة ابنتك.»

ضج الحضور واصطبغ وجه جنيفر بالاحمرار. لكن جاك لم تبد عليه الصدمة. فملامح وجهه مسترخية ووجهه بشوش ومرتاح. انحنى بسخرية واجابها من دون اي اضطراب:«هذا النوع من الحدس يظهر في محله، يا عمتي ايزابيل.»

حاولت جنيفر كل جهدها ان تكبت استغرابها. فرد جاك الوقح لا شك يتجاوب مع شكوك

www.liilas.com

المدعوين بأن ديانا هي حقا ابنته. وان هذا الاخير، هذا الرجل الشريف، يتحمل كل مسؤولياته في هذا النهار التاريخي. حينئذ فقط فهمت جنيفر بوضوح خطة جاك. بزواجه منها، فهو يريد تمويه ماضيه الفاسق وبالتالي لن يعود مضطرا لتحمل شفقة الناس الذين يشعرون، عادة بالشفقة لمن يقبل تحمل عبء طفلة من رجل آخر.

حتى عمته ذات العينين السوداوين الحادتين انخدعت فراحت تنظر اليه متأملة الى ان ارتسمت الابتسامة على شفتيها وقالت بهدوء:

«سامحني يا صغيري وقدم لي زوجتك.»

وخلال الساعات التالية تهيأ لجنيفر ان هذه المجموعة الصغيرة المتعلقة بالقيم التقليدية كانت تنظر اليها بعطف وتسامح. كما ان كلمات جاك بدت كأنها الاعتراف الواضح المطلوب، وساهمت في تهديم الحاجز بينها وبين الحضور.

وبينما كان العروسان يتحركان بين المدعوين، اسرع احدهم بالقول:«افهم الآن لماذا كنت كتوما في ما يتعلق بغيابك، السنة الفائتة يا جاك! وصدقنا ما كنت تقوله انك كنت تقضي اجازة ترفيهية لا اكثر لاقل، لكننا نعرف

الآن، يا صديقي، ماذا كنت تفعل هناك.» خيمت الحيرة على الجميع، لكن والد هذا الرجل اسرع في تغيير الحديث وراح يتكلم عن امكانية اسواق الماشية الحالية. لكن جنيفر ظلت تعاني صدمة الاهانة. فاحمر وجهها وهمست باعتذار غير واضح واخذت ديانا من جاك وغادرت الصالون بسرعة. انزعج الحضور من تصرفها وتحلوا بالصمت.

من حسن حظها وجدت جنيفر شيلا في غرفة الطفلة فأوكلتها بشقيقتها. وبارتياح توجهت الى الغرفة المجاورة. كانت تشعر بحالة قريبة من الارهاق والتعب. فخلعت طرحتها ورمتها على السرير وجلست على الكرسي المواجه لمنضدة الزينة ولمحت نظرتها في المرآة. كانت عيناها تغليان غضبا. وراحت تتمتم قائلة:«تبا له! كيف تجرأ؟»

وقفت فجأة وراحت تخلع ثوبها وترميه ارضا، ثم ارتدت روبا اخضر وبدأت تسحب من شعرها الدبابيس العديدة حتى انسدل على كتفيها شلالات شقراء مكسوة بالازهار البيضاء العطرة. لم تسرح شعرها بل جلست امام النافذة المفتوحة واسندت رأسها على

www.liilas.com

يدها وراحت تشتم هذا الرجل الذي تكرهه. لكن لم تسنح لها الفرصة للحصول على هدنة. ولم يمضي الا عشر دقائق حتى انفتح الباب بقوة ودخل جاك الغرفة وقال بصوت قاطع بعد ان اخذ قراره النهائي: «غيابك لاحظه الجميع وهم يتساءلون عن سببه.ارتدي ملابسك من جديد وبسرعة. سننزل معا الى الصالون.»

نهضت جنيفر بسرعة وجسمها مشدود كسهم وقالت بلهجة حاسمة:

«انني اقول لا بكل تاكيد. بامكان مدعويك ان يتلفظوا بما يريدونه ويعلقون كما يشاؤون. لا يهمني ذلك! لكنني لن اعود الى الصالون وارجوك أن تتركني وحدي.»

اقترب منها بنظرة مهددة وقال:

«لا تعاندي والا اضطررت ان اضع عليك ملابسك بنفسي، لديك خمس ثوان لتقرري.»

قالت واسنانها تصطك:«لن ارضخ لمطالبك.»

امتلأت عيناها بتحد كبير واضافت تقول:«اذا تقدمت بخطوة واحدة سأبدأ بالصراخ. وماذا سيقول المدعوون؟»

«اذا صرخت سأرغمك على السكوت حتى ولو اضطررت الى استعمال الوسائل العنيفة.»

شعرت انه مصر على قراره ولن يتراجع عنه، وبالرغم من ذلك كانت تعبر عن عناد فاجأها هي بالذات. ان كبرياءها يمنعها من الاستسلام لرغبات جاك كما يقنعها بأنه لن يجرؤ على تنفيذ تهديداته. فلا رجل بمركزه قادر على التصرف بقسوة من هذا النوع. رفعت في الحال ذقنها بفخر ونظرت اليه واثقة متحدية. فجأة غدرها وامسك روبها وشده ناجحا في خلعه عنها. ثم رماه باشمئزاز على السرير بينما كانت جنيفر مصدومة من هذا العنف الرهيب وكل اطرافها ترتجف. لم تقدر على اصدار اكثر من صرخة خانقة. ويدا جاك اطبقتا على كتفيها كمخالب حيوان مفترس. وهمس يقول بغضب:«الم احذرك؟»

وجذبها نحوه. كأنه يريد معانقتا... لم يسبق لها ان شعرت مثل هذا اليوم باحساس عنيف الى هذا الحد. كأنه موجة تجرفها وتعريها من اي حكم وتحليل. لم تكن قادرة على فهم نفسها واعتبرت ان انفعالها عائد الى الكراهية والرفض اللذين تشعر بهما نحوه.

رفع جاك رأسه وقال:«اذن... هل سترتدين ملابسك ام سأضطر الى...؟»

www.liilas.com

تمكنت من دفعه عنها. وهو بدوره تركها فقالت وهي ترتجف:«انت متوحش! لا يكفيك انك تهينني كما فعلت، بل تصر على معاملتي مثل بنات الشارع، لشدة ما عاشرتهن.»

«هل تعتقدين انك مختلفة عن تلك النساء اللواتي ينتظرهن الرعاة في الحانات؟ انهن يبعن حياتهن من اجل المال، تماما مثلك. بعضهن يعترفن بذلك وهن صادقات تجاه انفسهن. لكن هناك البعض الآخر، مثلك، يتصرفن ببراءة ونعومة ظاهريا ما يجعل الرجل يشعر تجاههن بالخجل ولا يجرؤ على الاقتراب منهن الى ان يجدهن بين ذراعي رجل آخر.... يتظاهرن بالنعومة، لكنهن مقيتات واكثر وضاعة من سواهن.»

عرفت جنيفر اهانات كثيرة، لكن هذه الاهانة تفوقها كلها. وفهمت انه لن يتراجع امام اي شيء ليشفي غليل انتقامه. لكنها حاولت الدفاع عن نفسها وهي ترتجف انفعالا وتقول:«لست ابدا مثل هذه النساء اللواتي تقارنني بهن. عندما قبلت المجيء الى هنا مع جدك...»

قاطعها جاك بجفاف قائلا:«هذا المجنون المسكين بامكانك ان تخدعيه بسهولة اكثر مني. يعتبر نفسه كأنه يعيش في القرن الماضي. بالنسبة

اليه، النساء بحاجة الى ان يدللهن الرجال ويحمونهن. لا شك انك شعرت بصدمة كبيرة عندما تبين لك انني من نوع الرجال الذين لا ينساقون بسهولة، وان الدموع لا تؤثر فيهم كما لا ينجرفون وراء حيل النساء. في اي حال، اننا نتصرف بقلة تهذيب امام مدعوينا.»

اشار باصبعه الى الفستان المرمي ارضا. وقال بلؤم:«اسرعي في ارتدائه. ولا داعي ان تسرحي شعرك، فلم يعد امامنا وقت.»

ابتسم بسخرية واضاف:«عندما يرى الحضور شعرك المنسدل، سيعتقدون اني عانقتك بشغف وحب.»

جنيفر تتعذب كثيراً، وببطء راحت تلملم فستانها وتبدأ بارتدائه. انها تستسلم لأنها تخشى هذا الرجل وردات فعله غير المنتظرة... هذا الرجل الاناني والقاسي كالنسر.

كانت تتوقع ان يدير ظهره، لكنه لم يفعل. كتف ذراعيه على صدره وراح يتأمل كل حركة تقوم بها، من دون ان يشعر بأي شفقة تجاه توترها. وفي ارتباك راحت ترتدي فستانها وتزرره باصابع مرتجفة، مما جعلها تستغرق وقتا مضاعفا عن العادة.

www.liilas.com

ثم توجهت نحو منضدة الزينة وراحت تسرح شعرها بسرعة. لا احد بامكانه ان يرغمها على ان تبدو مشعثة الشعر امام الحضور. وفي المرآة كانت تلمح في عينيه السوداوين ملامح ساخرة ولهوا كبيرا. لكنها عندما التفتت نحوه كان تعبير وجهه غامضا.

اقترب من الطاولة الصغيرة واخذ بيده عقد اللؤلؤ وقال:«من الافضل لك ان ترتديه... انه مكافأة جميلة لك لقيامك بالخدمات المطلوبة. لا شك ان هذا العقد كلف العجوز اموالا طائلة.»

وضعته حول عنقها بارتجاف. لكن في اعماقها كانت غاضبة من نفسها. فاستغل جاك اضطرابها ليقول بوقاحة:«بصورة اجمالية، اجدك مخيبة للأمل ومشوشة. لأنه كلما اقتربت منك، تعدلين عن بعض مواقفك بنفور وتجفلين. لكن في الحقيقة هذا التصرف لا يدهش. هناك عدد كبير من النساء الخبيرات يستعملن خجلهن وسذاجتهن كحاجز واق.»

ولما دخلا الى الصالون كان بعض المدعوين يغادرون المكان. وبارتباك ظاهري اضطرت جنيفر ان تصافحهم وتبادرهم بالكلمات المحببة اللطيفة. وكان نظرها يشتبك بالنظرات الساخرة

المليئة بالتعجرف او بعض التسامح، واحيانا قليلة بالنظرات الرؤوفة، ونظرات الحنان. كل واحد من الحضور كان يبدو مرتاحا لانتهاء الحفل وهذا الاجتماع الصغير. خصوصا الرجال المسنين الذين يظهرون عن وجوههم الرصينة الغامضة تهذيبا، لكنهم لم يتكبدوا مشقة الانتقال الى المزرعة الا للصداقة التي تربطهم بالسيد البير، لأنهم لم يكونوا راضين عن حفيده. بنظرهم، لقد شده اسم العائلة ولم يعوض عنه الا بهذا الزواج الذي جاء متأخرا. لكن بالنسبة الى الزوجات، فكن يشعرن بالاطمئنان، لا يمكن قهره، والدليل على ذلك الجهود المبذولة من قبل جده ليجعله يطيع اوامره، لكن من دون جدوى.

وبين الحضور كانت الفتيات وحدهن خائبات الامل. وبينما كن يحيين الزوجيين بعيون حزينة، كانت جنيفر على يقين ان هؤلاء المراهقات متى وصلن في غرفهن سيطلقن العنان للبكاء.

ولما غادر المدعوون المنزل، اقتربت ايزابيل التي كانت تنتظر ذهابهم من جنيفر وقالت:«تعالي واجلسي قربي، يا ابنتي العزيزة. لدي ما اقوله لك.»

بحثت جنيفر عن جاك بنظرها لتحثه على المجيء

www.liilas.com

لمساعدتها. وبهزة رأسه فهمت انه لا مجال لها ان تتهرب من عمته.

قالت المرأة العجوز بلهجة جافة وهي ترى جاك يسير بحركة في اتجاهها:«ليس انت من اريد. اني ارغب في التحدث الى زوجتك على حدة.»

«كما تشائين، يا عمتي. لكن عليك ان تحذري. صحيح انها تبدو مسالمة وغير مؤذية، كجميع الفتيات الانكليزيات، الا انها متى احرجت تخرج مخالبها.»

«انا سعيدة ان اسمع منك هذا الكلام.»

ازاحت العمة ايزابيل طرف المقعد وربتت على الكنبة مشيرة الى جنيفر ان تأتي لتجلس قربها. فلبت المرأة طلبها وبدأت ايزابيل الكلام موجهة اياه الى جاك:«من الاسهل التقاط الفئران بالمطرقة بدل تقديم الحلوى، ويجب على زوجتك ان تجمع في داخلها قوة وحكمة كي تستطيع مقاومة تجربة الزواج من رجل مثلك.»

رفع جاك حاجبيه السوداوين وقال:«وانت ستعلمينها كيف عليها ان تتحلى بهذه الصفات، اليس كذلك، يا عمتي؟»

«ليست بحاجة الى نصائح على ما اظن. انها امرأة بمعنى الكلمة. اريد فقط ان احذرها ضد

جاذبيتك المخادعة، هذا السحر الذي تستعمله منذ طفولتك.»

ضحك جاك وتركهما مع بعض ظلت جنيفر تنظر اليه وهو يبتعد وتفكر بكلمات العمة التي لا شك تخفي محبة كبيرة له. وما ان اغلق الباب وراءه حتى انحنت العمة وهمست قائلة:«يا له من رجل ساحر، انه يخفي اكثر من جده عندما كان في سنه. هناك شيء يجب ان ا بوح لك به، يا عزيزتي، لقد امسكت الجواد بلجامه، على ما اعتقد لكن لا تحاولي ان تروضيه.»

ظلت جنيفر صامتة مكتفة اليدين. كانت تحدق بطرف حذاء العمة التي تابعت تقول:

«اني احسدك، يا عزيزتي. لكنك ما تزالين شابة وسليمة النية وبريئة. لذلك انا ارتجف مكانك... جاك سبب لك أذى كبير والشكليات التي تمت اليوم لا يمكنها ان تصلح هذا الاذى كليا. غير اني ارجو منك ان تتحلي بالصبر معه ولا تعيري انتباها لملاحظاته اللاذعة وان تردي عليها بالابتسام وان تتحملي منه طبعه الغاضب والعاصف، ذلك لأني اعدك بأنك ستجدين مكافأة على اعمالك في النهاية. وهو ان حبا عميقا ودائما سيجمع بينكما...»

www.liilas.com

ابتسمت جنيفر ابتسامة خفيفة بينما كانت العمة تنهض واقفة. لو كانت تعرف الحقيقة،ان جاك يتمتع بحرية كبيرة وليست جنيفر على استعداد ان تعارض هذه الحرية وتحرمه اياها.

الفصل السادس

في المساء غيرت جنيفر ثيابها للاشتراك في حفلة شواء ستتم في الهواء الطلق وسط الحديقة. فاختارت لهذه المناسبة تنورة مقلمة ذات الوان زاهية وقميصا باكمام قصيرة واسعة، مثلما ترتدي نساء وصديقات الرعاة، ثم سرحت شعرها الطويل جيدا ورفعته. ولأسباب غامضة تحلت بالشجاعة. فالاحتفال الذي سيتم الليلة لن يخجلها مثل حفل الصباح، لأن الرعاة اقل تصنعا وعجرفة من اصدقاء السيد البير، وبالتالي سيستقبلونها بترحاب ودفء. صحيح ان هذا الزواج السريع فاجأهم، هم ايضا، لكنهم لن يتظاهروا بالحكم عليها مسبقا او ادانتها.

اما ديانا التي ارهقها اللعب والدلال فنامت بعمق عندما جاءت جنيفر لتنحني فوق سريرها. وكانت تسمع الموسيقى الصاخبة والضحكات المبتهجة الآتية من الحديقة. وبخفة هبطت بخطوات نشيطة ومرحة السلالم المؤدية الى قاعة الاستقبال الصغيرة، حيث كان من عادة

www.liilas.com

السيد البير ان يجلس لتناول المقبلات قبل موعد العشاء. لكن ابتسامتها اختفت عندما رأت جاك ممدداً على احد المقاعد. وما ان دخلت القاعة حتى نهض لتوه. لاحظ نظرتها المتسائلة فأعلن ببساطة قبل ان يدعها تطرح السؤال المتوقع، قائلاً:«جدي، الرزين والكتوم كالعادة، قرر قضاء بضعة ايام في منزل عمتي ايزابيل. هذا لطف منه، اليس كذلك؟»

فتحت جنيفر عينين واسعتين مندهشة وقالت:«اتريد ان تقول اننا وحيدان هنا...»

«نعم. ليس تماما، فهناك الخدم الذين يسكنون الجناح القريب من هنا. من يمنعني ان آخذك بالقوة، هذه الليلة... لا احد بامكانه ان يسمع صراخك وعويلك.»

تلعثمت حين قالت:«لا تكن تافهاً.»

«انت مخطئة يا عزيزتي. كيف بامكانك ان تكوني حازمة ومعك الجواب القاطع؟ فالليلة ما زالت في بدايتها. اني اجهل تماما ماذا سيكون تصرفي في الساعات المقبلة.»

امسك ذراعها. ثم وضع يده على معصمها وادارها نحوه وذكرها قائلاً:«لقد تزوجنا منذ قليل يا حبيبتي. لذلك من المفترض ان نقدم

لبعضنا العطف والمحبة. والعروس عليها ان تبدو متألقة. اما بالنسبة الي، فسأحاول جهدي ان ابدو مغرماً وسأهمس في اذنك بعض الكلمات الناعمة وسأضمك الى صدري. وفي أوج السهرة، سأطبع على خدك قبلة. لنبدأ اذن بالابتسام، ومن جهة ثانية لا اريد ان ارى في عينيك ملامح الكآبة والقلق بعد الآن. فهمت؟»

صمت قليلا ثم اضاف قائلاً:«افهم تخوفك. لكن لن يكون الامر غريبا عليك، كما في المرة الاولى.»

من لهجته فهمت جنيفر انه يتألم في صميم كبريائه فاستعادت نشاطها، وتوجهت معه الى باب المدخل حيث ينتظر الرعاة قدومهما. وما ان اجتازا العتبة حتى سمعا اصواتهم الحماسية وصراخ صديقاتهم او زوجاتهم: «اهلا، اهلا، انت رائعة يا سيدة.»

تمكنت جنيفر من الابتسام بثقة كبيرة ادهشت جاك كليا. المشهد الذي واجههما في غياب الشمس كان ذا جمال عنيف وبدائي. وضعت المشاعل حول دائرة واسعة، وسطها الحركة مستمرة. فالتحضير لهذه السهرة بدأ منذ ساعات عديدة. صغار الرعاة كانوا ينحنون

www.liilas.com

فوق موقد كبيرحيث يوقد الحطب، يتصببون عرقا ويحركون اشياء كبيرة حيث تشوى ببطء شرائح كاملة من اللحم. والنساء اللواتي لمعت عيونهن اثارة وحماسا جلبن الصحون الى الطاولات العريضة.انه اسراف وافراط بالطعام. «الباباس» وهي عجة البطاطا المحشوة باللحم المفروم والبصل او الجبنة. «البانشو فيللا» اي حبوب الذرة والفاصولياء المطبوخة مع البيض المقلي والمتبلة بالثوم. ولفتت نظر جنيفر انواع الفاكهة والخضار اللماعة والملونة.

مجموعة من الشباب خرجت من الظل. على اكتافهم القيثارات وتحت اصابعهم المرنة تنبعث موسيقى ناعمة وايقاعية. الابتسامة عريضة على شفاههم وتظهر اسنانهم البيضاء الناصعة.

كانوا يشكلون مثل حرس الشرف حول جاك وزوجته. فترك موظفو المزرعة اعمالهم واسرعوا نحوالعروسين للتهنئة.

وبعد هذا الاستقبال الحار بدأ الهرج والمرج والمزاحمة. جلسوا على الكراسي بينما جلس جاك وجنيفر على طرف الطاولة. وللحال شرعوا بتقطيع شرائح اللحوم وفاحت رائحة ذكية، رائحة اللحم المشوي وعبق الجو بها. كان الجميع

جائعين ولم يخشوا ان يستعملوا اصابعهم ليتقاسموا قطع الشواء. وفي هذا الجو الغريب كانت الريح تهب بهدوء وتمشط جبال الانديس القريبة التي بدت غير مرئية تماما في الظلام.

كانت المأدبة تدور بفرح وضحك. الابتهاج والحركة والاندفاع حررت جنيفر التي كانت تقضم باسنانها هذه اللحوم اللذيذة بنهم شبيه بنهم الرعاة.

كانت تتلقى اسئلة من حين الى آخر:«ما رأيك؟ هل الطعام يعجبك؟»

«نعم، جدا. انه رائع للغاية.»

كانوا ينادونها بمختلف الصفات: المرأة الانكليزية، الزوجة الرائعة الجمال. الشقراء الغجرية.

وبعد انتهاء العشاء ازيحت الطاولات والكراسي ليحل مكانها الموسيقيون، الذين راحوا يعزفون موسيقى حماسية تشجع المدعوين على الرقص.

انحنى جاك فوق جنيفر وقال لها:

«الكويكا هي رقصة الحب الشيلية.»

ابتعدت عنه لكنه امسك بخصرها وشرح لها قائلا:«منذ البدء على المرأة ان تجذب انتباه

www.liilas.com

الرجل، وخلال الرقصة، تستميل حبه، وتدخل الى قلبه.»

لم تعيره جنيفر غير انتباه سطحي، اذ كانت تنظر الى الراقصين. الرجل والمرأة يقفان وجها لوجه ويحاولان تحويم مناديل كبيرة حول رأسيهما. ثم تقوم المرأة باستدارات عديدة آخذة وقفات مغرية، بينما الرجل يضرب بقدميه على ايقاع الموسيقى التي تزداد حماسا بشكل تدريجي، والحضور يطلق صرخات الحماس والتشجيع ثم ينضم الى الحلبة التي تتحول الى هياج ودوامة لا نظير لها.

فجأة ظهرت فتاة سمراء، ساحرة الجمال، كانت جنيفر تحدق بها وتتبع تحركها. وهمس احدهم قربها: «كايت، انها تبحث عن رجلها.»

كانت الفتاة تتفحص الوجوه، ثم ما ان رأت جاك حتى اقتربت منه. كانت تحدق فيه بالحاح، غير مكترثة بتعليقات الناس. همسات وشوشات كانت تسمع هنا وهناك.

وباناقة رشيقة توقفت امام جاك على رؤوس اصابعها ودعته في وقاحة ان يتأمل خصرها الرفيع وقوامها الرشيق. رمقت جنيفر بنظرة اشمئزاز كأنها تريد ان تقول لها ان نحافتك

ولون بشرتك لا يمكنهما ان يثيرا صديقي. ومن دون اي انزعاج وضعت الخصم والمنافس.

راحت جنيفر ترتعش وتقول لنفسها ان هذه الفتاة لم تبد غاضبة على جاك لانه تركها، غير انها تستغل المناسبة لتتحداه. وكانت كل الحظوظ بجانبها.

وبحركة كريمة دفع جاك بسلة فاكهة نحو الفتاة الجميلة. ومن دون ان تحيد نظرها عنه، تناولت تفاحة وضمت القمة. ثم مدت ذقنها وشدت على التفاحة بين اسنانها الناصعة ودعت جاك ان يتقاسمها معها. انحنى جاك للحال ليلبي دعوتها، لكن في سرعة البرق، حولت رأسها عنه وراحت تضحك، ثم خطت خطوة الى الوراء داعية اياه ان يتبعها.

توقف الراقصون في امكنتهم وراحوا يراقبون المشهد. ظلت الفتاة تحدق بجاك وهي ترجع الى الوراء بحركة راقصة. كان وجه جنيفر جامدا. وجاك الذي سحرته الفتاة، اقترب منها بخطى عريضة وراح الحضور يصفق بايقاع والموسيقيون يعزفون بحماس على قيثاراتهم. وراح جاك يضرب بقدميه ويصفق بيديه وكايت تدور ببطء حوله، وتنورتها الطويلة

www.liilas.com

الواسعة تتطاير حولها فتظهر قوامها الجذاب. واشتدت الموسيقى وراحت تسرع كما راحت خطوات كايت تسرع ايضا وتتظاهر امام جاك باستعراض متوحش ومثير. كانت تقترب منه بدون ان تلمسه. وتساءلت جنيفر: كيف سينتهي الامر؟. الفتاة كانت منجذبة بعنف نحو جاك وهذا لا شك فيه وجاءت في يوم عرسه لتحقق هذه الرقصة المليئة شغفا كأنها تهب نفسها له. ولم تمتنع جنيفر من الشعور نحوها بالشفقة، لأنها مرفوضة تلقائيا لدى عائلة بلان. لا شك ان كايت مولعة بغرام جاك، لكن هذا الاخير لا يشاطرها الحب. لا بد انه يستحسن جمالها ومرحها. لكنه لا شك يعتبر هذه العلاقة عابرة لا اكثر ولااقل. فهو يتنقل بسخرية ولا مبالاة من مغامرة الى اخرى. فكرت جنيفر بكل هذا وامتلأ قلبها مرارة كبرى.

حول جاك نظره عن الراقصة لينظر نحو زوجته. كانت نظرته تلمع بسخرية، وفهمت جنيفر انه لاشك عرف ما يدور في ذهنها. وبغضب منه ومن نفسها، انتظرت حتى ادار لها ظهره، ونهضت في هذا الظلام ولم يلاحظ احد رحيلها، لكنها دخلت المنزل راكضة وصعدت السلالم مسرعة

نحو غرفتها. وبعدما صفقت الباب بشدة، ظلت مستندة اليه برهة حتى تستعيد تنفسها. اقفلت الباب بالمفتاح وبدأت تخلع ملابسها. كانت على وشك الانهيار. هذا النهار الطويل كان مليئا وخصبا بالانفعالات.

غير ان الليل ما زال في بدايته بالنسبة الى الساهرين.

وتتردد فتحت جنيفر درج خزانتها لتأخذ قميص نومها، لشدة دهشتها كان فارغا. فتحت الدرج الثاني، ثم الثالث، ولم تجد اثرا للألبسة الداخلية. وحتى داخل الخزانة لم تجد اي لباس. فاعتراها احساس بالتوتر والخوف. اقتربت من السرير ورأت الفراش عاريا من الشراشف والوسائد والاغطية. سمعت جنيفر خطوات على السلالم. فتناولت الغطاء الوحيد الذي يغلف السرير ووضعته حول جسمها. توقفت الخطوات امام الباب، فتسمرت مذعورة. تحركت قبضة الباب فظلت جنيفر صامتة. وسمع صوت جاك الجاف قائلا: «دعيني ادخل، يا زوجتي والا خلعت الباب.»

وبعد قليل خلع الباب بالفعل ودخل ولاحظ وجود الادراج كلها مفتوحة. فقال بسخرية وهو يغلق

www.liilas.com

ابواب الخزانة:«هل كنت تتوقعين البقاء في هذه الغرفة بعد زواجنا؟ وسارا المرأة العاطفية لا تتحمل ان نبقى منفصلين مدة طويلة، فقد حملت امتعتك الى غرفتنا التي سنتقاسمها معا من الآن فصاعدا.»

شعرت جنيفر بارتخاء في قدميها وكادت تقع لكنها تمكنت من القول:«لكن ماذا يعني هذا الكلام؟ الم نتفق على ان...»

قاطعهاضاحكا:«اطمئني انهما غرفتان متصلتان بباب مشترك. سننام اذن كل واحد على حدة. لكن كي لا نوقظ شكوك الخدم علينا ان ندعهم يروننا معا. وارجو الا يكون هذا الطلب مهمة شاقة لفتاة انكليزية طاهرة.»

«اني اقبل هذه الشروط. هل بامكانك ان تريني هذه الغرفة؟ فانا اشعر بالبرد.»

حملها بين ذراعيه وتوجه نحو الممر، لم تجروء على الحراك بينما كان يهبط السلالم. كانت يداه تحرقان جسمها. فتقلصت بتوتر، ابتسم جاك بوقاحة هادئة وهمس وهو يقف امام باب الغرفة:«قولي يا عزيزتي، لماذا هربت من الحفلة؟ الا تريدين مقارنة نفسك بمنافستك، ام انك غيورة؟»

رددت بارتباك:«غيورة ؟ عليك...»

كان منظرها لا يصدق. فغابت الابتسامة عن وجه جاك ومن دون ان يلفظ كلمة دخل الى الغرفة وانزل جنيفر على قدميها. وبينما كانت تتخلص من ذراعيه، هبط الغطاء الناعم الذي يحيط بها مظهرا كتفيها، فرفعته بحركة عصبية واشتبك نظرها بنظر جاك الذي ظل صامتا. وخافت جنيفر ان يكون جاك يحضر خطة للانتقام منها.

فقال اخيرا باستغراب:«لا، طبعا! كيف يمكن لقطعة جليد مثلك ان تغار؟ انه شعور تجهلينه... ماذا اذن وراء تصرفاتك الباردة؟ بماذا تشعرين لو كان لديك شعور؟ من المهم ان اعرف.»

جذبها جاك بعنف بين ذراعيه ولم تكن قادرة على التخلص من قبضته خوفا من ان ينزلق الغطاء عن جسمها. ثم راح يلامسها بيديه الفضوليتين. لا تنقصه الخبرة ولا حتى كيفية التصرف. وجنيفر التي كانت تتصنع اللامبالاة كانت تشتعل داخليا بالرغم منها.

وراح يهمس في اذنها قائلا:«اهدأي، يا عزيزتي.»

وبعدما لامس خدها الساخن، راح يعانقها

www.liilas.com

بشغف وهي كانت تشعر بأحاسيس عنيفة تحرق داخلها فارتعبت. ولما رفع رأسه، كان الامتنان مرتسما على وجهه مما جعل جنيفر تصفعه بكل قواها. وللحال امسك جاك بمعصمها وضمها اليه وانتزع يدها المتمسكة بالغطاء الحريري. وارتسم الألم على وجه جنيفر مما عتم قلبها. فلم تكن تريد الاستسلام له وراحت تتخبط بكل قوتها للتخلص منه. فسقط الغطاء حتى قدميها.

قهقه جاك وشعرت جنيفر بالاهانة والكراهية العمياء له حتى انها تمنت لو بامكانها ان تقتله في هذه اللحظة بالذات.

قال ساخرا:«بدأ الجليد بالذوبان. كان يكفي شرارة... وكيف احدثها!»

ظلت صامتة لا تتحرك لبعض الوقت. ثم تمكنت من القول والدموع تختنق في حنجرتها:«انت انسان فظ ومتوحش! اني اكرهك.»

تشنجت مستعدة لتحمل قهقهته الساخرة، لكنه اكتفى بمراقبتها بامعان ثم قال:«في الاقل تمكنت من اظهار عواطف شغوفة لديك. واني على يقين اني احدثت فيك انفعالا كبيرا. اكبر مما احدثه والد ديانا.»

ضربة جديدة اقوى من اي شيء. وهذه الذكرى اللاارادية لوالدها فتتت قلبها. فحاولت كبت بكائها لكن الدموع راحت تتلألأ من جفنيها.

فقال غير مصدق:«اتبكين لذكرى الرجل الذي تركك؟ هل ما تزالين تحبينه؟»

اجابت بجفاف:«لم يتركني. بل مات. لكني ما ازال احبه. وسأظل احبه.»

دام الصمت بضع ثوان. ثم انحنى جاك والتقط الغطاء الحريري ولفه حول جنيفر ثم حملها بين ذراعيه حتى السرير. رفعت نحوه عينين قلقتين فاسرع يقول لها:«بامكانك ان تنامي بهدوء يا عزيزتي. لست انوي محاربة شبح او خيال. لكن لا تنسي شيئا مهما: اننا ننتمي الى عالم الاحياء، لذلك يجب ان نفكر بهم وليس بالاموات. عزيزتي ارتاحي بسلام، لان الرجل لا يموت اذا ما نسيناه.»

* * *

خلال الاسابيع التالية، عرفت جنيفر معنى السلام والهدوء في حياة متميزة وثرية، حياة لم تكن تجرؤ على الحلم بها او تخيلها. ولما عاد السيد البير من اقامته القصيرة في منزل العمة ايزابيل، اعلمه جاك بقراره، وهو رفضه

www.liilas.com

ادارة المزرعة، الهدف الذي كان يرغب العجوز في تحقيقه، ولو بالحيلة والخداع. واعلمه بأنه يفضل ان يتقاسم حياة الرعاة المتعبة، كما في الماضي. ان يفيق قبل الفجر، ويمتطي جواده طيلة النهار ويجتاز من دون توقف المسافات الشاسعة، ويجمع الماشية لوشمها.

ومن وقت الى آخر كان يضطر الى مرافقة الماشية الى مرفأ بعيد، لذلك كان يتغيب اياما عديدة. ولدى عودته كانت ملامح وجهه مرهقة ومليئة بالغبار وكان جسمه النحيل يبدو اطول من العادة عندما يظهر قرب المنزل.

كان السيد البير يتحمل هذا الوضع بصعوبة. لكنه اخيرا لم يعد يحتمل. وفي احد الايام، بينما كان حفيده عائدا من رحلة طويلة، استدعاه لينذره ببلاغ نهائي لا عودة عنه.

ولما وصل جاك كان العجوز يأخذ حمام شمس قرب حوض السباحة ويستمتع برؤية جنيفر وديانا تلعبان في الماء. كانت الطفلة بامان بين ذراعي شقيقتها تطلق صياح الفرح واحيانا صراخ الخوف.

كان الطقس حارا وناعما وكانت جنيفر ترتدي ملابس سباحة بيضاء وبدا جسمها اسمر من

شدة تعرضه للشمس. كما ان صحتها اخذت بالتحسن وزاد وزنها. راحت تقهقه بصوت مرتفع عندما تمسكت ديانا بشعرها محاولة التسلق على كتفيها خشية الوقوع في الماء. وجاك الذي كان يقترب بخطى بطيئة وثقيلة لم يقدر ان يزيح نظره عن هذا المشهد، بل كان يبدو مسحورا ومندهشا مثل واحة بقلب الصحراء.

صرخ السيد البير لدى رؤيته قائلا:«جاك، يا بني، اهلا وسهلا بك في المزرعة! جنيفر، انظري، هذا جاك. تعالي واظهري له فرحك بعودته.»

وكي تخفي اضطرابها، انهمكت المرأة لحظة بديانا المتعلقة بعنقها. كانت تعرف ماذا ينتظر السيد البير منها. اقتربت من الرجل المرهق حاملة شقيقتها بين ذراعيها. هذا الرجل الذي وجدت في غيابه الراحة والهدوء والطمأنينة داخل المزرعة.

وبصورة غير منتظرة راح قلبها يخفق بسرعة. ثم رفعت رأسها نحو جاك من دون خوف. والسيد البير كان يراقب تصرفاتها بفرح. طبع جاك على خدها قبلة سريعة فخاب امل جنيفر. ثم ركز اهتمامه على الطفلة وقال:«كيف حال جميلتي الصغيرة اليوم؟»

www.liilas.com

اخذ الطفلة بين ذراعيه واضاف:«احب ان الهو معك، ياحبيبتي. لكنني مليء بالغبار. اذهبي الى امك حتى آخذ حماما واعود اليك.»

«هل تحب موافاتنا الى هنا بعد ذلك؟»

لم تصدق جنيفر ما سمعته. فهي نفسها التي طرحت عليه هذا السؤال.

«اذا كان هذا ما تريدينه. اتفقنا.»

تدخل السيد البير بقوة وقال:«ولماذا تظن انها لا ترغب بذلك. انت حقا زوج وشبح في آن واحد. حتى الآن جنيفر تتكيف مع هذا الوضع لكن، من جهتي انا، قررت ان اضع حدا لتغيبك المتواصل. واني انوي ان اضعك على رأس المزرعة، منذ الآن، سبعون سنة تكفي. سأستقيل من دون تأخر، لكن لنناقش هذه الامور بعد العشاء. اذهب وخذ حمامك ثم انضم الى جنيفر. لا شك ان لديكما اشياء كثيرة للقول. لكن لا تنسى ما قلته، لم يعد هناك وقت للتردد والمراوغة.»

هز جاك رأسه وتوجه نحو المنزل. وبانتظار عودته فكرت جنيفر ان جاك سيحقق هدفه الذي من اجله قبل زواجا سيحرمه الحرية لبضع سنوات.

وبينما كانت منغمسة في افكارها، لم تلاحظ

جنيفر ان الخادمة، بطلب من السيد البير، اخذت الطفلة الى داخل المنزل. ولما ظهر جاك على الشرفة، ابتعد الرجل العجوز بدوره تاركا الزوجين وحدهما.

«طلبت مني ان ارافقك، اليس كذلك؟»

فوجئت جنيفر به وانتفضت، فقال : «هل كنت جادة بدعوتك، ام انك تصنعت ذلك من اجل ارضاء جدي؟»

حبست جنيفر انفاسها وهي تحدق فيه، بقامته الممشوقة وعضلاته المتناسقة كليا. وفهمت للحال سبب جاذبيته واشتبكت نظراتهما، فقال بسخرية:«اذن؟»

«هل ترافقيني. اشعر بحاجة كبيرة للسباحة.»

فجأة شعرت برغبة قوية للمكوث بجانبه. مد لها يده ليساعدها على النهوض فراحت تركض حول حوض السباحة وهي تعي تماما ان ملابس السباحة لا تخفي فتنتها. ثم قفزت في الماء واحتلت كيانها قشعريرة ونوع من السعادة عندما لمحت جاك في فوران من الزبد. ظل عدة لحظات قربها ثم تجاوزها وهو يسبح بقوة وسرعة غريبة.

ولما وصلت جنيفر الى طرف الحوض كان جاك

www.liilas.com

يعوم بلا مبالاة وعيناه تحدقان بالسماء وهو ممدد على المياه كأنه فوق سرير مائي. وكان يبدو متلذذا فرحا.

قال بصوت منخفض:«انني احلم بهذه اللحظة منذ ايام وأيام.»

ثم التفت نحوها وتابع يقول:«خلال هذه الرحلة الاخيرة، لم الق الا المشاكل، فضلا عن حرارة الطقس التي وترت الحيوانات والرجال.»

قالت له بجفاف:«لكني لا اشك في انك نلت بعض التعويضات المرحة لدى وصولك الى المدينة.»

«نعم بالفعل، بعض التعويضات.»

فجأة اختفى تحت سطح الماء. ولما وصل قرب جنيفر، شدها بكاحليها وجذبها الى اسفل الحوض. اعتقدت ان رئتيها ستنفجران. تركها اخيرا، وصعدت الى الهواء الطلق وفتحت فمها تلهث. ولما شاهدت رأسه الاسمر يطل فوق الماء، قررت الانتقام، فتسلقت كتفيه وشدت ثقلها حتى انزلته تحت الماء. وفي الحال اصبح ذلك لعبة مرحة. وخلال ساعة تقريبا كانا يتداعبان في الماء كالاولاد، بكل بساطة. وبصورة غير منتظرة التقت طباعهما المختلفة في نوع من الاتفاق وراحا يتمتعان بهذا التناسق العابر.

وبعد ذلك تمددا على الكراسي الطويلة واحضرت لهما سارا شرابا منعشا. فاحتسيا شرابهما وهما يجففان جسميهما تحت اشعة الشمس.

تنهدت جنيفر قائلة:«اني احب فصل الصيف هنا. انه جاف من دون ان يكون خانقا. لا اصدق اننا في شهر كانون الثاني/يناير، ففي لندن لا شك ان الثلج منهمر الآن. وعلى الارصفة المنزلقة يتدافع الناس ليستقلوا الباصات متأففين من رداءة الطقس.»

بكلامها لفتت اهتمام جاك الذي راح يراقبها بدقة ويسألها:«حدثيني عنك. ماذا كنت تفعلين قبل ان تلتقي جدي؟ وكيف تم هذا اللقاء؟»

تجهم وجه جنيفر فجأة. لأول مرة تشعر بارتياح وارتخاء لوجوده، لكنه باسئلته هذه، اعادها الى مدار الخطر.

تلعثمت وهي ترد على سؤاله قائلة:«كنت اعمل في مكتب وأعيش مع ديانا في غرفة صغيرة لا تبعد عن مركز عملي.»

«وماذا كنت تفعلين بالطفلة عندما تكونين في العمل؟»

«كنت اضعها كل صباح في دار الحضانة وآخذها في المساء لدى عودتي.»

www.liilas.com

انها تعرف تماما عقلية الناس هنا في اميركا الجنوبية وكانت متأكدة من رد فعل جاك المصدومة لما قالته. الا يعتبرون هنا في تشيلي- ان وجود الام الدائم هو شيء ضروري للولد؟

«لم يكن امامي اي خيار. في انكلترا انها عادة النساء ان يضعن اولادهن في دور الحضانة. في كل حال فالعاملون هناك يهتمون بالاولاد كل الاهتمام وكل العناية.»

لمعت عينا جاك السوداوين وقال: «هكذا اذن، انت تعتقدين انه بامكانهم التعويض عن حب الام؟»

قالت جنيفر وقد سئمت من هذا الحديث: «كلا، ابدا! ولهذا السبب انا هنا. كنت اشغل وقتي وعقلي كله من اجل صالح ديانا وهذا الوضع كان مزعجا، لأني لم اكن اربح المال الكافي. ولما ازدادت المصاريف لدار الحضانة، اضطررت ان اخرجها من هناك. ثم ارغمتني صاحبة الغرفة حيث كنا نسكن على الرحيل لأن صراخ ديانا يزعج الجيران. كنت امر بحالة نفسية سيئة عندما شاهدت الاعلان الذي وضعه جدك فلم اتردد في اللجوء اليه.»

توقفت عن الكلام لحظة وشعرت بانزعاج يحتلها.

وجاك تقلص بدوره وقال بصوت فاتر: «تابعي كلامك. كيف كتب الاعلان؟ هل ما زلت تتذكرين الكلمات التي استعملها؟»

كادت جنيفر ان تهرب بسرعة لكن نظرته القاتمة اقنعتها وراحت تتلو عليه بشكل آلي قائلة: «وظيفة لفتاة شابة انكليزية شقراء، المركز يضع حياتها كلها في ملجأ من الحاجة.»

توقفت لحظة واختنق صوتها ثم اكملت: «يجب ان تكون كتومة، طيعة ووديعة.»

ابتسم جاك بسخرية فتابعت تقول: «وتقبل طلبات من يتحملن اعباء الاسرة.»

تنهد قائلا: «ولم يحذرك احد من مخاطر هذا الاعلان؟ رميت بنفسك هكذا.»

اجابت برصانة: «لم يعرف احد بخطتي. لم يكن لدي اصدقاء بمعنى الكلمة. وكنت اعاني وضعا ميؤوسا منه وكنت مستعدة ان افعل اي شيء لأبقى مع ديانا.»

نهض جاك فجأة وراح يحدق بها ويقول: «مهما اصر جدي، فلقد تزوجت من الماكر.»

فكرت جنيفر بمرارة: «كيف تنكر ذلك؟» فتعبير وجهه شلها. لكن لسبب غامض، حاولت متابعة الحديث وقالت بحزم: «كلا، كلا، لكن جدك سخر

www.liilas.com

مني. صحيح انه لم يكذب عليّ غير انه اعطاني صورة عنك لا تطابق الحقيقة. فحسب قوله لي انك رجل خجول ومعقد وتنقصك الثقة بالذات. وحسب قوله اتفق معك على ان يجد لك زوجة. لو كنت اعرف اني خدعت لما كنت وافقت على اقتراحه.»

وبصوت مخنوق راح جاك يشتم جده ولم تر الرأفة والحنان في عينيه الباردتين عندما حدقتا بها وقال:«اذن جئت الى تشيلي باعتقادك انك ستلتقين يمامة! غير انك التقيت بنسر تشبث بك بمخالبه، لقد خدعنا معا. لكننا سنثأر منه في الوقت المناسب. بما انك على استعداد لتقبل خطتي، سأسهر على ان تكوني قد اخذت تعويضك كما يجب.»

ابتعد عنها لكنها احتجت وهي تقول:«سبق واكرمني جدك كثيرا. ولا ارغب بشيء آخر، و...»

قاطعها قائلا:«لا تعتقدي ان ملابس انيقة ومنزلا تسكنينه يكفيان لأن تكوني امرأة ثرية، حتى ولو زينك بالحلى والمجوهرات، فهذا بنظري كأنك لا تملكين شيئا.»

بعد قليل من ذهابه، توجهت جنيفر الى غرفتها.

كانت الشمس ساطعة، لكنها كانت ترتعش بردا. لقد عاملها جاك باحتقار حتى اصبحت باردة كالجليد. هذا التصرف من قبله ليس جديدا، فمنذ لقائهما الاول وهو لا يكف عن مشاكستها. لكن هذه المرة، بعد هدنة بعد الظهر في حوض السباحة، دهشت جنيفر. لذلك فالصدمة كانت قوية.

وبينما كانت تخلع ثوب السباحة، سمعت وقع خطى خلف الباب. ليس امام جاك سوى باب غير مقفل ليجتازه لكنه لم يغامر في الدخول الى غرفتها منذ اليوم الاول لزواجهما. فكرت بوالدي جاك اللذين لا شك تقاسما هذه الغرفة بالذات. فهما ايضا اضطرا للزواج، لكن حسب اقوال السيد البير احبا بعضهما البعض بشغف كبير. اغمضت عينيها وهي تفكر ان هذا الجو عليه ان يعبق من جديد بهذا الحب. لكن من دون جدوى.

ارتدت روبها وتمددت على السرير. ما زال امامها ساعتان قبل موعد العشاء. كانت تشعر بتعب لكن الاعصاب والتوتر والاضطراب ستمنعها من النوم.

وراحت تسرح عينيها في المكان: الابيض كان

www.liilas.com

اللون الاساسي ثم الذهبي. السقف ابيض والستائر الحريرية يدخلها الابيض وكذلك البساط المزهر. الجدران عارية الا من لوحة صغيرة ومرآة كبيرة. همست جنيفر متعبة:« منظر عاطفي.»

ثقل جفناها فأغمضت عينيها وغطت في نوم عميق لم تفق منه الا بعد ساعة وشعرت بالراحة ونهضت تأخذ دوشا. احست بنشاط وانتعاش في كل انحاء كيانها. واختارت فستانا احمر فاقع اللون وضيقا ارتدته وشعرت بتحد سيساعدها على السيطرة على خجلها. ثم وضعت حمرة فاقعة وعلقت في اذنيها قرطين عريضين ومصنوعين من الذهب وهزت رأسها لتعتاد ثقلهما.

ثم وقفت امام المرآة تنظر الى نفسها عندما دخل جاك الغرفة. البساط السميك خنق صوت خطواته، لكنها شعرت فجأة بوجوده والتفتت نحوه. محى ابتسامته في الحال. كادت ان تعاتبه لدخوله المفاجيء وانتهاك حريتها واستقلالها، لكنها عدلت عن ذلك فجأة. كانت نظراته تتفحصها بدقة : فستانها احمر ضيق يظهر جسمها بتفصيل كبير. لكنها تسمرت

مكانها عندما صرخ بصوت مشمئز:«اخلعي هذا الفستان في الحال.»رفعت رأسها غروراً وسألته:

«لماذا؟ انه يليق بي تماما.»

قال بسخرية:«كما يليق جلد الذئب بالحمل، فقط النساء اللامباليات يرتدين مثل هذه الملابس، يا عزيزتي، وانت لست منهن. انت تجهلين كليا معنى الاغراء.»

وبحركة عنيفة انتزع القرطين ورماهما بعيدا، ثم امسكها بكتفها وبطرف يده مسح الحمرة عن شفتيها. واهملها تاركا اثارا حمراء في منتصف خدها وامرها قائلا:«والآن، اغسلي وجهك. ولا تنسي ان تغيري ملابسك، انت تبدين امرأة غير محتشمة.»

واجهته جنيفر بغضب وقالت:«لا يحق لك ان تتكلم عن الحشمة. رقصت كايت امامك بوقاحة وانت شجعتها واقنعت الحضور انك كنت تود الزواج منها.»

قاطعها بجفاف وغضب:«لا تدخلي كايت بالموضوع.»

«لكن، لديك ضمير.»

«بالطبع، عندي ضمير.»

www.liilas.com

وضع يده في جيب سترته الداخلية واخرج منها علبة صغيرة مخملية واضاف قائلا:«ارفض استغلال الرعاة، ومثلهم انت تستحقين الاعتبار. هذا كان لوالدتي. جئت به اليك تعويضا لخدماتك، اصر ان اراك تضعينها، هذا المساء بالذات.»

«كلا، شكرا. هذا لا يليق بفستاني.»

وفي اللحظة التالية كانت تتأرجح بدوامة غريبة. ثم شعرت بسحابة فستانها تنسحب. امسك جاك بالقماش الناعم ومزقه على طوله وقال بلهجة قاتمة:«المشكلة لم تعد مطروحة بعد الآن. وكي تمنعي ذلك من الحدوث في المستقبل ولتحافظي على ملابسك، اعرفي ان من عادتي ان يطيعني الآخرون من دون نقاش.»

وبهدوء نظر الى ساعة يده ثم اضاف:«يبقى امامك عشر دقائق قبل العشاء. وهذا يكفي لتغيير ملابسك.»

الفصل السابع

تم العشاء في جو متوتر. وجنيفر الشاحبة، ذات النظرة الحزينة حافظت على الصمت امام نظر السيد البير القلقة. وجاك من جهته، لا يتزحزح ويناقش من دون توقف بامور شتى محاولا استيعاب انتباه جده.

جنيفر مشدودة الحنجرة، كانت تشعر بصعوبة كبيرة في ابتلاع الطعام. فقد اهانها جاك مرة اخرى بقسوته الاعتيادية. ظل معها في غرفتها بينما تبحث في خزانتها عن فستان ترتديه. ثم اختارت فستان بلون القمح ليظهر عقد الياقوت الازرق.

وبعد ان نظر السيد البير الى جنيفر استدار نحو جاك وقطب حاجبيه وقال:«اريدك، قبل ان تتولى ادارة المزرعة ان تقوم برحلة صغيرة... رحلة بمثابة شهر العسل.»

لم يتحمس جاك ولا جنيفر. لكن قبل ان يشعر بخيبة امل اضاف قائلا: «بامكانكما ان تمضيا اسبوعين على الساحل، وسيكون ذلك رائعا، من ناحيتي، انوي زيارة بعض الاصدقاء في

www.liilas.com

اسبانيا، لكن بعد عودتكما. جنيفر،اعتقد بانك ستحبين منطقة فيناديل مار. هناك الشاطىء من اروع ما يكون والفنادق فاخرة يقصدها السياح من ارجاء العالم.»

اعتقدت جنيفر ان جاك سيرفض هذا الاقتراح، لذلك لم تر مناسبا ان ترد. لكن، لشدة دهشتها قبل جاك قائلا:«هذا اقتراح جيد ومغر. فضلا عن ان جنيفر ستكسب من المكوث قرب شاطىء البحر كل صحة وعافية.»

«رحلة شهر العسل تتم للعريس والعروس فقط وستبقى ديانا هنا.»

كانت لهجته قاطعة وكادت جنيفر ان تحتج لكن جاك سبقها قائلا:

«ربما انت على حق. اتفقنا، سنذهب غداً صباحاً الى فيناديل مار.»

شعر السيد البير بارتياح وغادر المائدة بعد انتهاء الطعام تاركا الزوجين لوحدهما. نوافذ غرفة الطعام كانت مفتوحة، غير ان الهواء العليل الذي يدخل الى المنزل غير كاف لانعاش الجو الرطب والخانق. فاقترح جاك في لامبالاة وضجر:«ما رأيك لو نخرج للنزهة؟»

في بادىء الامر كادت جنيفر ان ترفض. لكنها

اخذت حذرها في الحال. من الافضل الخروج على البقاء مسجونة في الداخل، واشارت له بحركة ايجابية من رأسها.

«سأجلب لك شيئا تلبسينه في حال شعرت بالبرد.»

نهض جاك سعيدا بالتخلص من هذا الجو الثقيل. وبعد لحظات، ظهر من جديد حاملا شالا طويلا مطرزا، قال وهو يقترب منها:«هذا يكفي. انه من الحرير وخفيف على الجسم.»

شعرت بالتشنج عندما وضعه على كتفيها. فلاحظ جاك رد فعلها وقال بسخرية:«اطمئني، لست انوي تمزيقه وهذا لا يعني اني على استعداد لأمزق كل ما ترتدينه.»

«لماذا تصر على ان تكون زوجتك في مظهر محتشم الى حد كهذا؟ انت لست متحفظا في ما يتعلق بلباسك الخاص.»

راح يتأملها مطولا وقال:«هناك مثل يقول: «المرأة العفيفة هي امرأة مهجورة.» لكن هذا المثل لا يمكن ان نطبقه عليك، لان ديانا هي الدليل الواضح.»

شعرت بالدموع تحرق عينيها فازاحت رأسها بسرعة، واجتازت ممر المدخل. فكرة واحدة

www.liilas.com

تعزيها، فوجود شقيقتها سلاح مخيف ومروع. ولو كانت تعرف استعمال هذا السلاح بمهارة كافية، سيشعر جاك بأن غروره على المحك ويتوصل الى عدم تحمل وجود الطفلة ولن يتأخر قبل ان يطردهما معا الى انكلترا.

عبرا الشرفة قبل الدخول الى الحديقة المضيئة بنور القمر. وراحا يتنزهان بين ازهار الاوكاليبتوس التي تحيط بالمنزل. ومن بعيد امكن رؤية البيوت الصغيرة المبنية على جانبي الطريق والتي يقيم فيها عمال المزرعة واسرهم.

راح جاك يشرح لجنيفر كيف تتم عملية التوزيع في المزرعة ويقول في لامبالاة اعتيادية:«عندما احتل المغامرون الاسبان هذه الارض الجديدة، وهبهم ملك اسبانيا مكافأة بمنحهم هذه الاراضي. وطلب منهم الحفاظ على القبائل الجديدة مكان سكان الهنود. واخذ كل فرد حقه من الاراضي باعتبار ما حققه ومركزه الاجتماعي. هكذا عادت المزارع الصغيرة الى الجنود والكبيرة الى الضباط.»

صمت قليلا ثم تابع وهو يحدق بالافق: «وآل بلان حصلوا على هذه المزرعة واداروها حسب التقاليد القديمة لبلاد المنشأ. وهذا النظام مستمر

حتى يومنا. الرعاة لا يعتبروننا اصحاب العمل، بل اعضاء نافذين في عائلة ينتمون اليها، لانهم يعملون هنا، ابا عن جد. ونشأت بيننا علاقات حميمة وهم يكنون لنا كل احترام.»

تدخلت جنيفر بلهجة قوية قائلة:«انت فرح لان عمالك لا يموتون جوعا. لكن عليك الاعتراف بأن احدا منهم لا يمكنه ارغامك ان تعطيه اكثر من حقه، اني مقتنعة بأنه اذا اراد احدهم مغادرة المزرعة ليعمل في مكان آخر، فلن يتمكن من ايجاد اي عمل.»

انتفض جاك بعنفوان وقال:«عمالنا احرار ان يذهبوا متى رغبوا.»

«مثلي؟ انت تعرف تماما ان لا احد من المالكين في المنطقة يقبل توظيفهم. ربما يجدون في المدينة عملا، لكنهم سيجدون صعوبة في البحث. ان آل بلان كانوا وما زالوا الطغاة المستبدين،وهذا مستمر حتى الآن. انتم لا تعتبرون الناس كائنات من لحم ودم، بل دمى تحركونها كما تشاؤون بطرف الخيط، انتم لا تعتبرون ما يريدونه ويرغبونه. فقط تهمكم رغباتكم وحدها. لنأخذ مثلا: العطلة على شاطىء البحر، هل اخذتم برأي؟ ابدا. لكني لا ارغب بالسفر وخصوصا

www.liilas.com

معك.»«اعتلت وجهه ابتسامة عابرة وقال:«الا تعجبك فكرة قضاء بضعة ايام معي؟ انت بحاجة ماسة الى عطلة، يا عزيزتي. اعصابك متوترة وفي فينادیل مار ستجدين الهدوء والاسترخاء، لكن بجانب ذلك...»فجأة اصبح صوته قاسيا حين اضاف:«يجب ان نحرص على ان يظل جدي في مزاج حسن. النجاح اصبح من الآن فصاعدا في قبضة يدي، واذا اضطررت من اجل ان نربح الجولة، ان نذهب معا في رحلة شهر عسل، فسنفعل ذلك. واذا كانت اقامتك معي في فينادیل مار تقلقك، سأبدل لك الهموم من الآن. لن تخشي شيئا مني، اني اعدك بذلك. سأحاول جهدي ان اجعل اقامتك هناك ممتعة للغاية وستتذكرين ذلك وسأشكرك على الخدمات التي تؤدينها لي.»

* * *

في صباح اليوم التالي اقلعت بهما الطائرة وكان يقودها جاك بنفسه. طارت الطائرة في السماء الزرقاء الصافية بعدما استدارت فوق المزرعة وتوجهت نحو الغرب. وكان جاك يبدو مرتاحا وهو يقود الطائرة. وقربه كانت جنيفر تشعر ببعض القلق عندما بدأت الطائرة بالصعود

عاليا. ولم تعد ترى الارض كليا. ومهما كانت تفكر بهذا الرجل الغريب، فهي تثق به ثقة عمياء. كان يرتدي سروالا من الكتان وبلوز قطنية. وفي وجهه ملامح بشوشة ويبدو انه عازم على الافادة من هذه الاستراحة غير المنتظرة قدر الامكان ان رافقته جنيفر ام لا.

رمقها بنظرة موارية، فكانت مستقيمة بجلستها، متشنجة، مكتفة اليدين. تعبر عن توترها الداخلي الحذر.

انحنى جاك فوقها وقال:«ما رأيك ببعض البهلوانيات؟»

لم تقدر جنيفر ان تمتنع عن الارتجاف. فهي تشعر انه على استعداد للقيام ببعض الحركات المجنونة، حسب عادته.

تلعثمت وهي تقول:«لا شكرا.»

فجأة ارخى الرافعة وسحب المقبض، فشبت الطائرة، ومقدمتها موجهة نحو الاعلى وراحت تصعد عموديا. تسمرت جنيفر في مكانها وانقطع نفسها وشعرت بدمها ينبض في اذنيها.

لم تكن قادرة على ان تنبس بصوت. ادخل جاك المقبض فاستعادت الطائرة مركزها الطبيعي. اطلقت جنيفر زفرة ارتياح، لكن لوقت قصير،

www.liilas.com

لانها بعد لحظة قصيرة، كانت تعيش كابوساً حقيقيا. راحت الطائرة تهبط بسرعة جنونية نحو الارض. وبدت الكارثة حتمية. اغمضت جنيفر عينيها وضغطت على فكيها، بانتظار ان تسمع الارتطام. وراحت تصلي في داخلها الى ان شعرت ان الطائرة تستقيم من جديد بصورة تدريجية.

فتحت عينيها وكان جاك يبتسم بهدوء. فصرخت به غاضبة:

«انت انسان مجنون حقا. كدت تقتلنا.»

قهقه ضاحكا وقال:«نعم، لكن بطريقة جميلة، يا عزيزتي ما اجمل ان يختفي الانسان عن الوجود في شعلة من النار.»

حاولت جهدها استرجاع تركيزها وقالت:«اقتل نفسك اذا كان هذا ما ترغبه، لكن افعل ذلك لوحدك. شخصيا افضل حياة تعيسة على موت رائع.»

تمت بقية الرحلة في هدوء تام، فقد ظلا صامتين حتى بدأت الطائرة تخفف من سرعتها استعدادا للهبوط.

قال جاك وهو يشير بذقنه نحو النافذة:«برأيك لماذا تدعى هذه المدينة «وادي الفردوس؟»

انحنت جنيفر الى الامام ولاحظت ان هذا التكتل الواسع له شكل المنجل والخط المنحرف يحيط المرفأ حيث رأت عددا لا يحصى من السفن. بالكاد شاهدت الرافعات تفرغ السفن وتملأها. اذ انحرف جاك فوق المطار بسرعة وهبطت الطائرة بسلام. استقلا سيارة تاكسي سارت مسرعة على الطرقات الواسعة. فلم تتمكن جنيفر من اخذ وقتها في النظر مليا الى هذه المدينة الجميلة وهضباتها الصخرية المنفتحة على خليج واسع.

اخبرها جاك بالتفصيل ليعوض عليها ما فات قال:

«في المدينة مستويات. الاحياء السكنية تقع في المدينة العليا ومنطقة الاعمال تقع في المدينة السفلى، قرب المدفأة. والقطارات السلكية تصل المدينتين.»

«بعد ربع ساعة وصلت بهما السيارة الى فينادیل مار. وللحال انسحرت جنيفر بطابعها الغريب. الشاطىء الرملي الناعم يمتد على مد النظر. صفوف المظلات ذات الالوان الداكنة تنتشر قرب الحجرات الخاصة بالمستحمين. ومن جهة البحر المساكن الواسعة الفاخرة التي

www.liilas.com

تعود الى بداية القرن، بجانبها الفيللات الحديثة وعربات الخيل تنتقل ذهابا وايابا بخطى الخيول الهادئة. اشجار النخيل والصنوبر تحد الطرقات العريضة المبلطة. وفي كل مكان الازهار على انواعها بوفرة مدهشة.

استغربت جنيفر وقالت:«يا لوفرة الازهار، وهذه العطور.»

قال جاك مبتسماً:«كل مواطن يملك المساحة اللازمة، عليه بطريقة او بأخرى، ان يزرع فيها ازهارا. وهناك قانون بهذا الصدد.»

مد ذراعه وفتح باب سيارة التاكسي التي توقفت امام فندق كبير فخم.

تبعته وكأنها في حلم الى مدخل الفندق. ودخلا المصعد الى الطابق الاخير. فقادهما الموظف الى الجناح المخصص لهما، خلال مدة اقامتها. الديكور كان فاخراً وانيقاً. النوافذ الكبيرة تطل على المحيط الهادىء.

قال لها جاك وهو يقترب منها وهي تتأمل المنظر مسحورة: «هل يعجبك المنظر؟»

«انه رائع يقطع الانفاس بجماله.»

التفتت نحوه متألقة. وظهرت في عينيها الزرقاوين زرقة المحيط الداكنة.

بدا جاك مندهشا: هذه الصرخة النابعة من اعماق القلب اسكتته. كان ينتظر ان يراها كالعادة متحفظة وعدائية، ولم يعد يعرف كيف ستكون رد فعله. حدق بها مدة طويلة فاحمرت وجنتا جنيفر واختفت الابتسامة البراقة وتيقظت. خالجها شعور انبأها الا تثق بجاك وبنزواته وانفعالاته العنيفة وغير المتوقعة.

ابتعدت بعصبية عندما اعلن بصوت لا مبال:«اقترح عليك شيئا، انسي اني رجل. ومن جهتي ساعتبرك نوعا من رفيقة. سئمت الحرب القائمة بيننا. لنضع اسلحتنا ولنعتبر هذه العطلة هدنة. ما رأيك؟»

كيف بامكانها ان تنسى مثل هذا الشيء، انه يطلب منها المستحيل، غير انها هزت رأسها ايجابا.

فأجابها بابتسامة عريضة قائلاً: «عظيم، ما رأيك لو نغتسل ونوضب اغراضنا؟ وبعدها نذهب للنزهة في المدينة.»

الحمام يقع بين الغرفتين. دعا جاك زوجته ان تدخله اولا، وبعد دقائق من خروجها من الحمام، ارتدت فستانا من القطن الابيض وهي تسمع الماء ينهمر في الداخل وصوت جاك يرنم اغنية معروفة.

www.liilas.com

سرحت جنيفر شعرها ورفعته كذنب الحصان. وفجأة شعرت بيديها ترتجفان. ماذا كان يجري في داخلها؟ اثارة؟ خوف؟ لكنها اقتنعت اخيراً ان مجرد قضاء اسبوعين في هذا المكان الاسطوري أيقظت في داخلها انفعالات غريبة من نوعها. لكن عليها ان تظل حذرة، فلا يجب ان تنسى ذلك.

طرق جاك الباب ثم دخل الى الغرفة. كان يرتدي سروالا اسود وقميصا سوداء.

«هل انت مستعدة؟» مد لها يده وراح يتأملها من رأسها حتى اخمص قدميها. وكان الاعجاب باديا على وجهه. اعطته جنيفر يدها ولاول مرة منذ شهور عدة تشعر بالسعادة.

ولمدة ساعة تقريبا راحا يتنزهان امام شاطىء البحر، كان الجو مرحا. السباحون يتداعبون مع الامواج. اكلا بعض فاكهة البحر الطازجة ليخففا من حدة الجوع. ثم جلسا عند السد ينظران حالمين الى البواخر الراسية. ومن وقت الى آخر كانا يزغردان ضاحكين عندما يشاهدان النوارس وهي تشك بطريقة بهلوانية باحثة عن بقايا الطعام، ثم تأبطا ذراع بعضهما البعض وعادا الى الفندق، امام نظرات المتسكعين الذين

اعتبروهما عاشقين. كان الطقس شديد الحرارة، ولما دخلت جنيفر الصالون الصغير في جناحهما، بدأ العرق يتصبب من كل انحاء جسمها. كانت متعبة وفي الوقت نفسه فرحة. وبينما كان جاك يحضر الشراب المنعش، شعرت برغبة في ان تشكره.

قالت وهي تجلس باسترخاء على المقعد المريح:«كان نهارا رائعا، افضل ان تكون رفيقي بدلا من ان تكون زوجي.»

من دون انفعال او تأثر قدم جاك لها كوب عصير بارد. وبينما كانت تراقب وجهه، تساءلت جنيفر اذا كان جاك قد غير رأيه فقط من اجل تهدئة تنبهها وتيقظها ويوهمها بشعور الامان الخادع. انه رجل ذو مزاج ناري ولا شك انه لم ير كايت منذ وقت طويل.

ابتسم لها بصراحة وقال:«الصداقة، يا عزيزتي هي مثل الثمرة، انها بحاجة للنضج. لكن الصداقة التي تجمعنا ما زالت خضراء فجة وبحاجة الى وقت طويل لتنضج.»

ردت له جنيفر الابتسام بابتسامة صريحة وامسكت اليد التي مدها اليها. فقال وهو يلاحظ السماء التي لفها الظلام:«حان الوقت

www.liilas.com

كي تهيئي نفسك للعشاء. من الافضل ان نتناول الطعام باكرا، يا صديقتي. وهكذا سنتمكن من الاستفادة قدر الامكان بهذه الرحلة.»

الفصل الثامن

لم تعرف جنيفر ما الذي كانت تأكله من اطعمة وضعت على المائدة. هي وجاك كانا منغمسين في الحديث لدرجة انهما لم يعيا نظرات المعجبين من جميع انحاء المطعم.

سألها جاك:«حدثيني عن طفولتك. هل كنت سعيدة؟»

لمعان ناعم ظهر في عينيها الشفافتين وراحت تقص عليه بعضا من سيرة حياتها:«والداي كانا زوجين رائعين ومثاليين، دللاني كثيرا. ولم يكن لديهما غيري الى ان...»

توقفت فجأة واحمرت وجنتاها. قطب جاك حاجبيه وسألها محتارا:

«نعم؟ الا ان...»

تلعثمت وقالت:«الا انهما....توفيا.»

«هل ماتا معا مثل والدي؟»

«ليس تماما، لكني خسرتهما في مدة ستة اشهر.»

«ربما ما كان يجب عليّ ان اطرح عليك هذه الاسئلة. انه موضوع مؤلم. احيانا افكر انك

www.liilas.com

لم تكوني باستمرار الفتاة الباردة، المتحفظة. آسف انني لم التق بك قبل المحن والمتاعب التي اثرت بك كثيرا.»

صمت قليلا ثم اضاف:«ما كانت آراء والدتك تجاه والد ديانا فالامهات احيانا متحيزات. ووالدتك ألم تر في ذلك الرجل المتطفل، الدخيل؟»

احمر وجه جنيفر وقالت:«كانت تحبه كثيرا.»

استغرب قائلا:«آه! وحسب رأيك، ماذا كانت وجهة نظرها لو عرفتني؟»

هذا السؤال طرحته على نفسها مرارا من دون ان تجد الجواب المناسب. لا شك انه كان اوحى اليها بالفضول والخشية في آن واحد ولكانت اعطت حكما قاسيا على عائلة بلان المتعجرفة، ذات التصرف المستبد. لكنها كانت لا شك اعترفت بأنهما يشكلان اسرة غير اعتيادية.

كان جاك فارغ الصبر امام سكوت جنيفر التي تنفست بعمق قبل ان تعلن قائلة:«كانت والدتي امرأة شديدة الحساسية كمعظم الامهات، وخصوصا امام الجمال الشكلي والجاذبية وسحر الحديث وحتى الى الاطراء لكن...»

«نعم، تابعي كلامك.»

قالت بعصبية:«لا شك انها لم تكن ستعجب

بتصرفك تجاه كايت. بالاضافة انه لا يمكنها اعتبار السعادة كنتيجة للغنى والمال.»

«اذا لكانت فضلت رجلا فقيرا، مثل والد ديانا. اهذا ما تريدين قوله؟»

اجابت من دون تردد وبسرعة:«انه يملك الثروة الحقيقية الوحيدة وهي ثروة القلب.»

نهض جاك فجأة وكان على وشك الاستسلام للغضب العنيف ثم قال:

«انا لا استغرب ان تكوني خائبة الامل! واعتقد ان لوالدتك قسطا كبيرا من المسؤولية في هذه القضية. واعتقد انها اساءت الحكم. الاشخاص العاطفيون يخدعون بسهولة. فحساسيتهم المرهفة تجعلهم عميان امام الحقيقة.»

لم يتسن لجنيفر الوقت للاحتجاج. فأمسك جاك بذراعها ودعاها لاجتياز غرفة الطعام والممر الى الخارج.

سألته ونفسها متقطع:«الى اين تصطحبني؟»

اشار الى سيارة تاكسي فتوقفت قرب الرصيف، فدفعها الى المقعد الخلفي ودخل قربها وقال للسائق:«الى الملهى، من فضلك.» ثم التفت الى جنيفر واضاف بسخرية:«رمز الثروات المزيفة.»

وبرغم ان الوقت كان باكرا، كان الملهى يعج

www.liilas.com

بالناس من جميع الجنسيات.النساء الانيقات كن يضعن المجوهرات والحلى. وحول الطاولات تزاحم الناس. في السقف تدلت ثريات الكريستال التي تنير الغرفة بنور براق. بالنسبة الى جنيفر كان هذا الجو خرافيا وساحرا.

في هذه اللحظة بالذات عرفت جنيفر معنى الثروة الحقيقية. لكن هي ايضا اصبحت ثرية بعد زواجها من جاك، وفي حقيبتها الآن مبلغ لا بأس به من المال. وفكرت، بامكانها ان تستعيد حريتها العزيزة على قلبها. بامكانها ان تشتري بطاقة سفر الى انكلترا وبطاقة لديانا. وان تستأجر لها غرفة وتعيش متى تجد لها وظيفة محترمة.

حول حلبة الرقص حيث يعزف الموسيقيون الالحان الخلابة وضعت الطاولات والكراسي ايضا.جلست جنيفر وراحت تنظر الى الازواج الذين يرقصون على نغم الموسيقى بينما راح جاك يطلب الشراب. بعد قليل جاء الخادم يحمل صينية عليها الشراب المثلج وبعض المقبلات.

قال جاك ساخرا:

«يبدو انك تفكرين افكارا داكنة، يا عزيزتي. الا تعدين خطة مجنونة للتخلص مني؟»

فوجئت وراحت ترتجف وتقول:«لا، ابدا.»

بطريقة ما كان جاك يقرأ ما يدور في خلدها. عليها ان تضلله والا تبخرت آمالها سدى. قررت ان تغير الخطة فربما نجحت؟ فاشتبك نظرها بنظرة الحاد وهمست قائلة:«هل تدعوني الى الرقص؟»

شع بريق خفيف في العينين السوداوين واجاب بطريقته الرجولية:«طبعا . بكل سرور.»

وبينما كانت بين ذراعيه ادركت انه لم يسبق لها ان وجدت في حلبة الرقص برفقة رجل في مقامه.

كان يضمها اليه بقوة فاحمرت وجنتاها وهمس في اذنها:«اهدأي. وعدتني ان تحاولي جهدك كي تنسي زوجك الاول. هل ما زلت تتذكرين؟»

استرخت وتذكرت ان عليها ان تكون محببة ومتساهلة اذا ما ارادت الوصول الى تحقيق هدفها. بعدئذ وجدت متعة في الرقص مع الآخرين برفقة الراقص البارع. واخيرا عندما اعادها الى الطاولة كان وجهه يشع سعادة.

امسك يدها وقال:«لأول مرة، هذا المساء، ارى فيك امرأة جميلة، وليس زوجة ارغمت على الزواج منها. ما زال وجهك يحتفظ بطفولته

www.liilas.com

برغم المحن التي اعترضت حياتك، والآن، افهم سبب تصرف جدي تجاهك، يريد ان يحميك. عيناك الكبيرتان البريئتان تعكسان براءة لاشك فيها.»

احتجت جنيفرقائلة:«لا اريد ان يحميني احد.»

شعرت بالاحمرار يعلو وجهها. اليس هدفها الوحيد ان تنسيه هذه الثروة الموجودة في حقيبة يدها. هذا المبلغ الذي يمكنها بواسطته ان تتدبر امرها؟

قال جاك بصوت هادئ:«انا اصدقك، يا عزيزتي.»

امضيا بقية السهرة في الرقص والكلام. وبعد مضي وقت عبر جاك عن لطفه الزائد. ولما قررا العودة الى الفندق بدأت جنيفر تخشى على مقدرتها في مراقبة خطتها. كما ان جاك بحاجة الى جهد كبير ليفي بوعده ومعاملتها كصديقة فحسب. لذلك كانت قلقة للغاية.

سيارة التاكسي التي اعادتهما الى الفندق كانت تجتاز الطرقات المهجورة بسرعة. وجنيفر الجالسة بارتخاء في المقعد الخلفي تركت رأسها يرتاح على كتف جاك الذي كان يتمسك بخصرها. لم يتبادلا الكلام طيلة الطريق. وبالرغم من المظاهر

كان الجو متوتراً. كل واحد منهما يشعر ان هذه الانفعالات والعواطف التي يحاولان كبتها ستنتهي بالتحرر. وماذا ستكون العواقب؟

وما ان دخلا الى جناحهما حتى همست جنيفر وقد احتلها الخوف:

«الساعة متأخرة. ارجو ان تعذرني، سأذهب الى فراشي في الحال.»

«لا، ليس في الحال. سنأخذ كوب عصير.»

«لا اريد ان اشرب شيئاً بعد الآن. دعني، ارجوك.»

جذبها نحوه بعنف وقال:«لا يمكنك ان تنسحبي الى غرفتك الآن! لنبقى معا، حبيبتي. ستكون هذه الليلة ليلة شهر العسل. وستكون ليلة رائعة لم يفرضها علينا احد ولا حتى جدي...»

وبينما ارادت ان تعترض، راح يعانقها بعنف. لكن سرينا اشمأزت منه وراحت تتخبط كحيوان جريح، لكن جهودها باءت بالفشل.

«تعالي، يا حبيبتي، استسلمي لي وسأنتزع الشبح الذي يهدد ذاكرتك. سأبعد ذكرى هذا الرجل الذي لم يعرف ان يفعمك حبا. لا تخافي من الشر، يا زوجتي الجميلة.»

توصلت في الاخير الى دفعه عنها وخطت

www.liilas.com

بضع خطوات الى الوراء ترتجف في كل انحاء جسمها. وراحت تقول بسخرية مرة:«الم تنسى وعدك؟»

«شيء ما لم اعد اسيطر عليه. بعدما قدمت لي سحرك واغريتني، في حلبة الرقص. الم تتعلمي من مغامراتك السابقة؟ عليك ان تعرفي ان الانسان لا يبدأ بعمل ما اذا كان لا يريد الوصول الى نهايته.»

«لم ارتكب اي خطيئة، لكن تعلمت درسا كبيرا. اذا صدف واحببت انسانا من جديد يجب عليّ قبل كل شيء ان اعرف الثمن الذي سأدفعه.»

حدق بها لحظة وقال:«كنت مجنونا لأني نسيت انك، في كل الظروف، ستظلين محافظة على موقف ثابت.»

* * *

في صباح اليوم التالي، تناولا فطور الصباح معاً. وشعرت جنيفر بارتياح لأن جاك لم ينوه بالحوار الحادِ الذي دارِ بينهما امس. غير انه كان متحفظا ومختصرا. وما ان انهيا الطعام، حتى قال جاك بلهجة باردة:«انا خارج. وسأعودِ في المساء. وانني اكيد بأنك ستملأين وقتك لهوا واستراحة، اليس كذلك؟»

هزت رأسها، فتوجه نحو الباب. وفجأة شعرت بالخجل. الم تشجعه على المغامرة؟ غير ان هدفها ما زال هو نفسه وهو ان تعود الى انكلترا.

ارتدت جنيفر ملابسها بسرعة. ثم توجهت الى مكتب الاستقبال وطلبت من الموظف هناك عنوان وكالة سفريات واسرعت الى العنوان. يبدو ان جاك نسي كليا المبلغ الذي بحوزتها. ربما لم يدرك انها بهذا المبلغ يمكن ان تتخلص من سلطته.

بقي حاجز اساسي وهو وجود ديانا في المزرعة. لكنها فضلت عدم التفكير بهذا الامر ووضعته جانبا، لأنها تريد التأكيد بأنها تملك المال الكافي ثمن بطاقتي طائرة باتجاه انكلترا.

خرجت من وكالة السفريات مبتهجة الوجه وتحمل البطاقتين. وبقي معها حسب تعليمات الموظف ما يعادل الف وخمسمائة جنيه استرليني.

ثم راحت تمشي في الطريق بحثا عن مكان هادىء، فذهنها متوتر وهي تريد الهدوء لتنظيم الافكار داخل رأسها. اخيرا وجدت مكانا يطل على المحيط.

راحت تستعرض موضوع ديانا ولم تجد الحل

www.liilas.com

المنشود. فكرت ان تتصل بالسيد البير وتقدم له عذرا ما كي يرسل اليها ديانا الى فينياديل مار. ماديا هذا معقول جدا، قال ان عائلة بلان لديهم طائرتان تحت تصرفهم.

قالت لنفسها بصوت مرتفع:«ولنفرض اني اقنعت السيد البير بإرسال ديانا، لكن هل سأوقظ بالوقت نفسه الشكوك عند جاك؟»ولما حان وقت الغداء، تعبت جنيفر من التحليل وقررت العودة الى الفندق.

وبينما كانت تمر قرب مكتب الاستقبال، نادها الموظف قائلا:«لحظة، يا سيدتي، هناك رسالة لك وللسيد.»

لم تعر انتباها لاهمية محتوى البرقية، بل تناولتها منه بلا مبالاة. وبينما كانت في المصعد ألقت نظرة سريعة الى محتواها، وفكرت انها مرسلة اليهما من المزرعة.

فتحت الرسالة بسرعة. وشعرت بصدمة: امنيتها العزيزة ستتحقق. اعادت قراءة بعض الجمل التي كانت تقول:

«ديانا لم تتوقف عن البكاء بغيابكما. سنرسلها اليكما. ستصل الطائرة في تمام الساعة الثانية بعد الظهر.»

نظرت الى ساعة يدها. الموعد يقترب. وبلا تردد أوقفت المصعد ثم هبطت فيه بعد ان كبست على زر الطابق الارضي. وخرجت الى الطريق باحثة عن سيارة تاكسي: لكن لسوء حظها كانت سيارات التاكسي كلها مليئة بالركاب.

استعادت جنيفر تعقلها وراحت تحلل الوضع. انها بحاجة الى ربع ساعة كي تصل الى المطار. اذا لديها الوقت الكافي لتحضر حقيبتها. وهكذا لن تكون بحاجة للعودة الى الفندق بعد لقاء ديانا. وحتى تصل ديانا، تستقل تاكسي الى مطار سنتياغو الدولي. وهناك تنتظر موعد طائرتها الى انكلترا.

عادت الى الفندق وفي اقل من عشرين دقيقة جمعت ما تحتاج اليه وحملت حقيبتها بيدها ودخلت المصعد من جديد. وبهدوء كبير اجتازت الممر وخرجت. هذه المرة الحظ كان معها، ووجدت سيارة تاكسي من دون اي انتظار.

قالت للسائق:«الى المطار. اسرع من فضلك.»وبعد ربع ساعة وصلت الى المطار. دفعت للسائق وتوجهت الى الشرفة المطلة على المدرج حيث بامكانها ان ترى وصول الطائرة. وبدأ الانتظار الذي بدا لها بلا نهاية. بعصبية، كانت

www.liilas.com

تسترق النظر الى ساعة يدها بشكل متقطع. فكرت بجاك الذي لن يعرف اين تكون. غير ان القلق بدأ يحتلها، اذ كانت تخشى ان يظهر في اي لحظة.

من بعيد هبطت الطائرة الخاصة لعائلة بلان، فاسرعت الى المدرج. نزلت شيلا من الطائرة حاملة ديانا بين ذراعيها. شكرتها جنيفر لاهتمامها بديانا فأكدت لها شيلا قائلة:«الطفلة بكت كثيرا في غيابك ولا احد تمكن من مواستها حتى السيد نفسه وهو الذي قرر نهائيا ان يرسلها اليك.»

حملت جنيفر ديانا بين ذراعيها وقالت متعبة:

«حبيبتي الصغيرة المسكينة.»

فجأة لمعت عيناالطفلة المبللتان وارتسمت ابتسامة على وجهها. كأن شعاع شمس يخترق الغيوم. ضمتها جنيفر الى صدرها وراحت تداعب خصلات شعرها الشقراء ثم همست تقول:«لن اتركك ابدا بعد الآن، اعدك بذلك. من الآن وصاعدا سنبقى معا الى الابد.»

لوح الطيار، باشارة من يده الى جنيفر، فردت عليه بالابتسام ثم لاحظت انه لم يغادر الطائرة، فسألت: «ما هي التعليمات، يا شيلا؟»

«انا تحت تصرفك، سيدتي. اذا كنت بحاجة الي، سأبقى والا، سأعود الى المزرعة.»

«اشكرك، لكن بامكانك العودة.»

غياب جاك اقلق الخادمة ظاهريا، لكنها لم تجرؤ على طرح السؤال، فصعدت الى الطائرة وادار القبطان المحرك. وبعد قليل اقلعت الطائرة مسرعة. وانتظرت جنيفر اقلاعها قبل ان تعود الى داخل المطار.

فجأة شعرت بقدميها تخوران.

عليها ان تحمل ديانا والحقيبة وتتوجه الى محطة سيارات التاكسي.

جاء السائق ليساعدها، فتلعثمت وهي تقول:«الى مطار سانتياغو.»

وبينما كان يضع الحقيبة في الصندوق جلست جنيفر في المقعد الخلفي وضمت ديانا الى صدرها بشدة. كانت نافذة الصبر لكن السائق لم يكن مسرعا في الذهاب. لسوء حظها وقع اختيارها على سائق بطيء! اخيرا ادار محرك السيارة. استرخت جنيفر واختفت التجاعيد من جبينها. قالت وهي تضم اختها: «بعد قليل، يا ديانا، نصبح بعيدين عن آل بلان وليس بوسع احد منهم ان يطالنا.»

www.liilas.com

بعد ان غادر الساحل دخل السائق الى قلب المدينة. شعرت جنيفر باستقرار داخلي واطلقت العنان لمخيلتها. بعد قليل ستتمتع بالحرية المنشودة. حتى ولو اضطرت للبقاء حتى نهار غد قبل ان تستقل طائرتها، لكنها ستصل انكلترا بعد اقل من اربع وعشرين ساعة! ومتى وصلت الى بلدها، ستعمل جاهدة لابطال زواجها، دليل عدم اتمامه. وهكذا تكون قد دمرت جاك وبامكانها ان تحلم كما تشاء بالرجل المثالي الذي تأمل ان تلقاه يوما من الايام.

ومرة اخرى راحت تتخيل رجل احلامها. لم تتمكن من تخيل مظهره الخارجي. فملامح وجهه غامضة كأنها غارقة في ضباب كثيف. ذا طبع قاس وارادة لا تتزعزع.

وبلحظة البرق راحت صورة جاك تتراقص امام عينيها. لكنه كان مختلفا كليا عن رجل احلامها. عند جاك السخرية والعجرفة والانانية تتغلب على مزايا القلب. ومثل آل بلان، فالحنان عديم الوجود.

بعد ساعتين وجدت نفسها في بهو صالة المطار. سجلت حقائبها والبطاقات بيدها، فلم يبق لها الا الانتظار. حسب تعليمات موظف مكتب

الاستعلامات الرحلة المقبلة الى لندن ستعلن عما قريب.

وبما ان ديانا تشعر منذ برهة بانزعاج راح يقوى مع مرور الوقت تنبهت جنيفر في خجل ان شقيقتها جائعة. اما هي فلم تكن تشعر بالجوع بتاتا...

قالت لها وهي تلامس خصلات شعرها ديانا الشقراء:«لو تعرفين كم احسدك. بالنسبة اليك الحياة سهلة. تعالي، سآخذك الى المطعم.»

ولثلا تلفت الانتباه اختارت جنيفر مكانا في زاوية المطعم. وبعدما طلبت احضار البيض المقلي، راحت تنتظر عودة الخادم بفارغ الصبر. ومن حسن حظها كان بامكانها الاختباء وراء ستار من اشجار النخيل. اخيرا وصل الطعام، لكن جنيفر لم تتذوقه بسبب شدة توترها. كانت يداها ترتجفان واهتمت باطعام ديانا. فوجئت جنيفر عندما اعلن المذيع داعيا ركاب لندن للتوجه الى قاعدة الاقلاع.

«حان الوقت للذهاب.»

حملت ديانا بين ذراعيها وخرجت بسرعة من المطعم واخذت طريق الركاب الذين شكلوا صفا طويلا. بعد ساعات وتصل الى انكلترا

www.liilas.com

الهادئة التي ما كان يجب ان تغادرها. قدمت البطاقتين للمضيفة المبتسمة وكانت على وشك اختراق الحاجز عندما شعرت بيد قوية تمسك بكتفها وسمعت صوت جاك وراءها يقول للموظفة:«زوجتي غيرت رأيها. لن تأخذ هذه الطائرة.»

ذعرت جنيفر وشاهدت رحيل المسافرين. المفاجأة اخرستها.

فقال جاك بعد قليل بوجه متجهم:«لم اكن اعتبر انك امرأة ذات شأن كبير، لكني لم اكن اعرف انك ستحاولين خداعي بهذه الطريقة. لقد تصرفت تصرفا شنيعا.»

التفتت جنيفر اليه وقالت:«لماذا لا تدعني ارحل؟»

«هذا لا يغير الامر. لو لم الحق بك في الوقت المناسب، لقلبت الدنيا حتى اجدك في انكلترا نفسها.»

كانت مضطربة لدرجة انها لم تلاحظ شحوب وجهه والنار في عينيه.

... وعادوا الى فالباريزو. ولما وصلوا الى الفندق في فينادیل مار كانت ديانا نائمة في احضان جنيفر. فطلب جاك من مكتب الاستقبال ان

يضعوا سريراً صغيراً في غرفة جنيفر، ووضعا الطفلة فيه. ثم امسك جاك بمعصم جنيفر بشدة مرغما اياها ان تنظر اليه. ثم قال:

«إذن! اعتقد ان عليك ان تشرحي لي سبب تصرفك القبيح هذا...»

دفعها الى الصالون واجلسها بقوة على المقعد وقال:«تستحقين العقاب! كيف تجرأت، انت زوجتي، ان تقومي بهذا العمل، ماذا سأشرح لاصدقائي في المزرعة؟ هل اقول لهم انك هجرتني من السأم؟»

«لست بزوجتك.»

بحركة من رأسها ابعدت شعرها الى الوراء واضافت:«وانا اسخر بما يفكر به اصدقاؤك.»

امسكها بكتفيها ورفعها عن المقعد من جديد وقال بلهجة تهديد:«لقد طفح الكيل، يا زوجتي الجميلة. ارى اني كنت متسامحا معك. اعطيتك الوقت كي تنسي والد ديانا، لكنك لم تقدري موقفي.»

لما تركها، ظلت واقفة وقالت وهي ترتجف كليا:«ماذا يعني ذلك؟ أي عذاب ستكبدني؟»

«لا شيء. سنتناول العشاء هنا في الصالون، انت وانا ثم نقضي السهرة معا كي نتعرف على

www.liilas.com

بعضنا البعض بالتفصيل! لذا اطلب منك ان تذهبي الى غرفتك وتغتسلي وتغيري ملابسك. بامكانك مثلا ان ترتدي الفستان القمحي وتضعي عقد الياقوت حتى اتذكر ان ما آخذه سبق ودفعت ثمنه.»

ادار جاك ظهره وانسحب الى غرفته. وظلت جنيفر مكانها مدة طويلة من دون حراك. بعد الآن لا شيء يمنع زوجها من الثأر منها. توجهت الى الحمام قاتمة الوجه وراحت تحضر نفسها كما طلب منها. وبعد قليل عاد واقفاها الى غرفتها. لاحظت جنيفر ان مزاجه لم يتغير. وللمناسبة كان يرتدي سترة بيضاء انيقة تظهر كتفيه العريضين.

قال بقسوة:«هل انت حاضرة؟»

اجابت كأنها ذاهبة الى حبل المشنقة:«نعم.»

الطعام بدا لها مرا وراحت ترغم نفسها للتحدث عن اشياء سخيفة مع جاك. وبعدما تناولا القهوة، راحت جنيفر ترتجف في كل انحاء جسمها، مثل عصفور مسجون. سألها وهو يلمس كتفها العاري:«هل تشعرين بالبرد؟»

«كلا.»

«اذن، هذا سيسهل عليّ مهمتي.»

جذبها نحوه وراح يعانقها بقوة رهيبة كأنه يريد اهانتها. لم تستسلم جنيفر له. لكنه تصرف بحنان فجأة مما غير رد فعلها وراحت تعانقه وتهمس الكلمات الحنونة في اذنه. نهض وحملها بين ذراعيه حتى غرفته. ثم اغلق الباب برجله ومن دون تردد وضعت يديها حول عنقه وهو راح يضمها بشغف اليه.

بعد ساعات، استيقظت جنيفر وبهدوء توجهت الى سريرها حيث ظلت ممددة، تحدق بسقف الغرفة حتى الفجر.

www.liilas.com
عناري

الفصل التاسع

في اليوم التالي، افاقت ديانا باكراً جداً وشعرت جنيفر بارتياح لكونها ستنصرف الى القيام بمهمات غير اعتيادية. كان عقلها وذهنها منصبين على الطفلة، لذلك لم تفكر بشيء آخر. وبعدما غسلت شقيقتها واطعمتها، نزلت الى بهو الفندق ثم خرجت بها الى نزهة في الحديقة المحيطة بالفندق. الازهار المرطبة بالندى تملأ المكان ويفوح اريجها حتى القلوب. لم يكن هناك وجود لأحد وراحت جنيفر تفكر بهدوء في احداث مساء امس.

لكنها كانت تشعر بانزعاج يحتلها كلما فكرت بأنها ستلتقي بعد قليل بجاك. الاكتفاء الذي ستراه على وجهه سيملأها خجلا... قبل ان تستفيق ديانا، اخذت جنيفر دوشا باردا علها تطفىء النار المشتعلة بداخلها. وكلما فكرت بالدفء والنشاط والاضطرام التي احست بها عندما استسلمت له، يراودها ندم كبير. كانت ترغب في الهرب بعيدا ورمي نفسها في المحيط لتغتسل من كل هذه الاهانات...

لكن هناك ديانا... من اجلها، على جنيفر ان تواجه الحقيقة، اين جاك في هذا الوقت. ربما كان جاك في صالون جناحهما، ينتظرها كي يتناول فطور الصباح. بدأت تسمع الاصوات من مطابخ الفندق وبخطى بطيئة دخلت الى بهو الفندق وصعدت الى جناحهما. وما ان كادت تدفع باب الصالون حتى انفتح الباب بعنف وظهر من ورائه جاك. بعصبية حرك يده في شعره وقال بلهجة قاطعة:

«اين كنت؟»

«كنت... اخذت الطفلة في نزهة قصيرة... في حديقة الفندق.»

لم تجرؤ على التحديق بوجهه لئلا يشتبك نظرها بنظره ولم تجرؤ حتى على التحديق بأزرار قميصه.

«سنعود الى المزرعة، حالاً بعد الفطور. من فضلك كوني جاهزة بأسرع ما يمكن.»

قالت وهي تدخل الصالون:«اتفقنا.»

كانت تريد التوجه الى غرفتها لولا ديانا التي راحت تضحك وتضرب بيديها تطلب الذهاب عند جاك. ابتسم لها جاك واقترب منها وقال:«صباح لخير، يا طفلتي الجميلة! يسرني ان ارى في

www.liilas.com

العائلة من لا يعاملني باحتقار. الا يمكنك ان تقنعي امك ان تتصرف مثلك...»

لم تقدر جنيفر ان تمتنع عن الارتجاف داخلياً. لقد شدد جاك على كلمة «امك». من المستحيل ان يكون قد عرف الحقيقة.

تناولا الفطور في جو متوتر. وفي نهايته، دفع جاك صحنه جانباً وراح يشرح لجنيفر ما يتوقعه منها:«متى نعود الى المزرعة، ستحاولين جهدك ان تخفي الكراهية العميقة التي تشعرين بها تجاهي. تكلمت مع جدي وأكد لي سفره الى اسبانيا، في المساء كما كان هذا متوقعاً حصوله، بعد عودتنا.وبعد ان يغادر المزرعة، بامكانك ان تتصرفي بتحفظ وبرود، كما تشائين... لكن قبل ذلك عليك ان تبدي بشوشة. لقد افهمني بوضوح انه ينوي ان يراني اديرالمزرعة.وحاليا، رجال القانون يضعون صيغة قانونية كي يصبح الارث رسميا. وحالما تصبح المزرعة بتصرفي، وحسب الصفقة التي عقدناها، لن يعود هناك سبب لوجودك.»

توقف لحظة ثم تابع يقول:«وبطبيعة الحال، لا يمكنك ان تستعيدي حريتك في الحال. لا يجب ان نخيب ظن جدي في الايام الاخيرة من

حياته ولا يجب ان ندعه يعرف اننا خدعناه.»

همست جنيفر بصوت مخنوق بعد ان سمعت ما يقوله محنية الرأس:

«هل هذا أمر؟»

ثم استجمعت شجاعتها وقالت:«لست انت من يعطيني الاوامر... ان تحقيق مخططتك لا يتم الا بارادتي.»

وافق جاك على ما قالته بنظرة جليدية واجاب:

«صحيح. لكن لن ترتكبي جنونا في الوقوف ضدي ومقاومتي...»

لم تكن جنيفر تجهل ان بامكانه ان يكون عدواً لا يضاهى. الم يجبرها على الاستسلام له؟ لكن هل بامكانه معاكسة قلبها وروحها...

«سأفعل ما تريده، ليس امامي اي خيار. ما دمت حذقا اكثر مني.»

«انت حقا عديمة المهارة. ان كل العاملين في الفندق عرفوا انك استلمت اخبارا مهمة وانك خرجت حاملة حقيبتك. لقد اعلموني في الحال بغيابك وكان من الصعب علي ان اعرف مكان وجودك. في كل حال، كل هذا بسبب خطأي... كان يجب ان اعرف انك ستستعملين المال الذي بحوزتك لتنفيذ مخططتك. لكن

www.liilas.com

لم اكن اعرف انك تريدين الهرب وتضليلي.»
رفعت جنيفر عينيها ورأت الهدوء مرتسما على وجه جاك، لكن لم تكتشف القناع الذي لا تعبير فيه.
اعتذرت وغادرت الطاولة وكادت تدخل غرفتها عندما سمعت صوت جاك وراء ظهرها يقول:«قولي. قبل ان تذهبي... اليس هناك ما اجهله وتعرفينه انت وحدك؟»
التفتت جنيفر فجأة باندهاش وظهرت على وجهها ملامح قلق، فاجابت:
«كلا... لماذا تسأل هذا؟»
راح جاك يتأملها بنظراته فشعرت بالذنب ولم تقدر ان تخفي اضطرابها، فاحمرت وجنتاها.
فقال:«انت تحمرين، هل لأني اشك فيك خطأ ام لانك تشعرين بالخجل؟ هذا ما اتساءله.»
ثم ادار ظهره واختفى.

* * *

خلال رحلة العودة ظلا صامتين. ولما هبطا من الطائرة، كان السيد البير في المدرج يستقبلهما.
«آه جنيفر! لقد ارسلت لك ديانا مجبراً. لكن

أمل الا يكون هذا سبب اختصار اقامتك؟»
«كنا قد قررنا قبل وصولها موعد عودتنا. في الواقع لسنا بحاجة الى عطلة، فالحياة هنا في المزرعة مريحة ومفرحة.»
انار وجه السيد البير الذي قال:«كم انا سعيد ان اسمع ذلك منك، يا عزيزتي. لكن، هل كانت اقامتك في فيناديل مار ممتعة؟»
التفت الى جاك الذي قال:«صحيح ان الاقامة كانت قصيرة، لكنها كانت حقا رحلة شهر عسل موفقة.»
احمرت وجنتا جنيفر، فضحك السيد البير وقال:«حسنا، والآن بامكاننا ان نتكلم في أمور العمل.»
ثم وجه كلامه الى جنيفر قائلاً:«ارجوك ان تعذرينا، لكن علينا ان نتكلم على انفراد لبعض الوقت. كاتب العدل هنا وبانتظار تواقيعنا. لن يأخذ ذلك وقتا طويلا. لكني سأبقى مع جاك بعض الوقت. هناك امور عديدة اريد ان اناقشها معه قبل رحيلي. لقد حددت سفري غدا، بعد الروديو. هذه الرحلة تعز على قلبي وليس هناك مجال لتأخيرها بعد الآن.»
اكتشفت جنيفر بعد ذلك ما يعني الروديو، اذ

www.liilas.com

كان الموضوع الاساسي المتداول حاليا في المزرعة. سارا وشيلا اعلمتاها ان الروديو كناية عن مظاهرة ذات اهمية كبرى، فيها يقوم الرعاة بالتمارين الخطرة على ظهور خيل لم تدرب بعد.

واكدت لها شيلا قائلة:«يجب ان يكون المرء شجاعا وقويا وماهرا. اني احب الروديو. الناس ياكلون ويشربون ويغنون. ويعم المكان الصراخ والضحك. كذلك هناك العازفون وقيثاراتهم والاكورديون و...» تنفست الصعداء ثم اضافت:«لكن ما احبه اكثر من اي شيء آخر. هو عندما يدخل الثور في الحلبة.»

غير ان جنيفر لم تكن تصغي الى تعليقات الخادمة الا باذنين شاردتين. كانت تفكر في المستقبل. ان غياب السيد البير الطويل سيكون له الاثر على حياتها. لا شك ان جاك سيعود الى خروجه الليلي. فهي تشعر بذلك في صميم قلبها وترى ان وجود كايت يعم الجو ويحيط بالمنزل بطريقة سرية.

لاحظت فجأة انها تضغط بشدة على معصميها وان فكها يتقلص. فوجئت بعنف رد فعلها وقالت لنفسها بصوت مخنوق:«انسي هذا الرجل.

انتفضت ديانا وراحت شفتاها ترتجفان. اسرعت جنيفر لمؤاساتها وتقول لها: «لا تبكي، يا حبيبتي. انا غاضبة حقا... لكن ... لا افهم ما الذي ترينه في هذا الرجل، وتنظرين اليه بعينين ملتهبتين.»

غصت ديانا، فراحت جنيفر تقهقه ضاحكة.

في المكتب الواقع تحت غرفة جنيفر، كان السيد البير رافع الرأس يسمع ضحكتها. وفي حركة انيقة، وقع على المستند امام كاتب العدل. ثم التفت الى جاك وابتسم له قائلا:«يبدو ان زوجتك سعيدة. هذه القهقهات تؤكد قناعتي. الآن، عليك ان تعترف انني لم اخطىء في جلب هذه الفتاة الى هنا. انتما تشكلان زوجين مناسبين.»

فضل جاك الموافقة على كلام جده، برغم معرفته ان ضحكات جنيفر سيتبعها البكاء والنواح.

«انا اخضع لمهارتك. لا يوجد انسان غيرك قادر على اختيار الزوجة المناسبة للرجل المناسب. هذا واقع اكيد. آمل ان احقق الثقة التي وضعتها بي وان اكون وريثك الكفؤ.»

«في المساء سنحتفل قبل سفري. واصر ان يكون هذا العشاء محفورا في ذاكرتي... هذا سيعزيني خلال غيابي.»

www.liilas.com

هز جاك رأسه موافقا وقال:«طلبت من جنيفر ان ترتدي اجمل فستان لديها.»

اطاعت جنيفر تعليماته حرفيا، وفي المساء كانت ترتدي فستانا من الموسلين الازرق الناعم فبدت كأنها عائمة على غيمة.

قال لها جاك:«دعينا نتصرف بلياقة نقنع جدي بأننا اخيرا وقعنا في غرام بعضنا البعض سيذهب مرتاح البال وسعيدا. لا تستغربي اذا تصرفت معك بطريقة حميمية وعائلية. واذا رأيت ان هذا التصرف في غير مكانه، رددت لنفسك انها المرة الاخيرة التي سأتصرف بها هكذا. وهكذا يكون بامكانك تحملها اكثر.»

وتذكرت هذا الكلام وهي تدخل الصالون حيث كان السيد البير يتناول المقبلات مع جاك. ولما رأى جنيفر، قام جاك بوضع كوبه جانبا وراح للقائها. قبلها واحاط كتفيها بيده، فراحت ترتجف منفعلة وهمس في اذنها قائلا:«انت رائعة الجمال، يا زوجتي الحبيبة.»

كان يلفظ هذا الاطراء بصوت عال كي يسمع ذلك جده. ثم انحنى وعانقها ببطء وشغف. وفكرت جنيفر: اذا كان هذا العناق مقدمة لما سيحل هذا المساء، فماذا تبقى لآخر السهرة؟ ضمها

اليه وتقدم من جده مبتسما بفخر واعتزاز. وقف الجد بدوره وقبل جنيفر وقال:«الآن، انا اسعد رجل في العالم.»

ابتسمت له جنيفر وردت على قبلته بقبلة وقالت:«انت الرجل المتفهم والقادر، لم اتعرف على مثلك من قبل.»

«لم تندمي لأنك تزوجت من حفيدي، اليس كذلك؟ لكن هذا السؤال في غير محله. يكفي النظر اليكما. كأنكما عاشقان فتيان.»

قاطع جاك الحديث قائلا: «ماذا تحبين ان تشربي يا حبيبتي؟ شراب الورد مشروبك المفضل، أليس كذلك؟»

«اتذكر، يا حبيبي، آخر مرة شربنا منه؟ كنا نتناول العشاء ونرقص في الملهى. كان ذلك عاطفيا... ولما عدنا الى الفندق كنت كأني اعيش حلما.»

«وتلك الليلة التي قضيناها معا لا يمكنني ان انساها اطلاقا. انها في ذاكرتي الى ا لابد. كنت ساحرة، ورائعة... وغامضة.»

ابتسما لبعضهما البعض ببرود بينما كان جده يقهقه ضاحكا، اضاء وجهه ثم قال:«الم اعدك بذلك، يا ابنتي؟ عندما يواجه حفيدي لغزا، يريد

www.liilas.com

معرفته في الحال. وهذا الحب للإلغاز يعود الى طفولته النضرة وما زال محتفظا به حتى الآن. والآن لنتناول العشاء، اني اشعر بسعادة كبيرة تفتح الشهية على الطعام. انوي الاستفادة قدر الامكان من هذه الوجبة العائلية الاخيرة.»

خلال العشاء بذلت جنيفر كل جهدها ان ترد على كلمات جاك المبطنة. ولم يشك السيد البير بصحة هذه الكلمات. لكن شيئا فشيئا اصبح الجو متوترا واعصاب المتحاربين بدأت بالأنهيار. الا ان السيد البير المتعب نام في مقعده. واغتنمت جنيفر نومه، فراحت تعبر عن غضبها قائلة لجاك:«لم اعد احتمل كل هذا الكذب. سأعود الى غرفتي.»

«يكون ذلك اصدق ما فعلته في هذه السهرة.» ادارت له ظهرها وكادت ان تنسحب عندما امسك بها جاك من خصرها، وكاد ان يغمس عينيه السوداوين المشرقتين في عينيها الزرقاوين فارتعشت، فقال:«لقد لعبت دورك باتقان. انت ماهرة عندما تريدين خداع الغير... الآن، ارجوك ان ترحلي.»

كادت ان تتعثر وهي تمر قرب السيد البير الذي كان يغط في نوم عميق.

بعد ساعات قليلة، اي في حوالي منتصف الليل، سمعت بوضوح اصوات خطوات على الشرفة مباشرة تحت نافذة غرفتها. كان الرجل يتوجه نحو الاسطبل. تجمدت جنيفر وراحت تصغي، بعد قليل سمعت اقدام جواد يخرج لتوه من اسطبله. امتطاه الرجل وولى به بعيدا.

اسندت جنيفر رأسها على الوسائد فريسة انزعاج عميق لايفسر.

عند الفجر، استيقظت جنيفر على اصوات آتية من الخارج. كان الرعاة قد انهمكوا في تحضير الحلبة، الاسيجة الطويلة البيضاء المغلفة بالقش تذكر بسلة الغسيل الكبيرة. وتدريجيا بدأ الفرسان يجتمعون حول السياج. كانوا يرتدون لهذه المناسبة البانشو الملون والقبعات العريضة والسراويل الجلدية السوداء والاحذية العالية. وكانوا يمتطون احصنتهم بفخر.

بعد قليل رأت جنيفر جمهور المشاهدين يزداد ليحيط الحلبة. وبرغم انهماكهم قام الرعاة بتحية المرأة الانكليزية وديانا التي تشبه والدتها بشعرها الاشقر وعينيها الزرقاوين. ومن المزارع المجاورة بدأ تهافت الفرسان الجدد الذين يشتركون بكل احتفالات الروديو في المناطق المجاورة ويأتون

www.liilas.com

من كل انحاء المنطقة. السيارات ملأت الساحة، وكان جيران السيد البير وعائلاتهم ومعظمهم من الملاكين الكبار، يتهافتون بأعداد كبيرة لحضور الاحتفال.

غير ان جاك لم يظهر بعد. قرب موعد الاحتفال، وبدأ الاعلان بالعرض الاول، وجاء السيد البير ليستعلم قرب جنيفر عن تغيب حفيده، لكنها لم تقدر ان تفيده بشيء.

تلعثمت وهي تقول: «ليس من مهمة جاك ان ينظم الاحتفال!»

وبينما كانت تتظاهر باللامبالاة، كانت جنيفر تبحث بين الجمهور بنظرها عليها تلمحه بينهم. لكنها اقتنعت اخيرا ان جاك ليس موجوداً هنا. قررت الا تفكر فيه وتلقي اهتمامها كلياً على الحلبة حيث بدأ العرض الاول. وكان كناية عن مدى سرعة المتسابقين في التقاط عجل.

والعرض الثاني كان اكثر اهمية من الاول. وهو امتطاء الخيل من دون سرج. توجهت جنيفر برفقة السيد البير الى ممر ضيق مبني من حواجز عالية معدنية حيث يربط الحصان قبل ان يطلق داخل الحلبة. يكون الحصان معصوب العينين بمنديل وبالتالي لا يمكن ان يرجع

الى الوراء، مما سيجعله يقوم برفسات عنيفة. تسلق احد المنافسين الحواجز وشد الحبل بقوة وقفز على ظهر الحصان. في الحال، خلع احد مساعديه الرباط عن عيني الحصان وفتح الباب بواسطة حبل. فركض الحصان بعنف في المساحة امامه آخذاً فارسه بعجلة رهيبة. بالكاد تمكنت جنيفر من رؤية المنافس الاول لأنه اجتاز الساحة بسرعة واصبح من الجهة الثانية من الحلبة. هتاف فرح صدر عن الحضور واحتل الحماس كل واحد منهم.

شعرت جنيفر فجأة بجفاف في حلقها. هذا الفارس الذي يقوم بكل جهده كي يبقى على ظهر الحصان، كان... جاك بالذات! وراحت تنظر اليه بعينين قلقتين وهو يحاول جهده كي يحافظ على توازنه، مثل عقرب يتمايل الى أمام ثم الى وراء، لكنه كان مسيطرا على الوضع تماما.

اطلق الجمهور صرخة كبيرة، لأن الحصان بعد ان قفز قفزة هائلة، وقع ارضا بكل زخمه. اخفت جنيفر وجهها بيديها خائفة ان ترى جاك مصابا تحت الحصان غير ان التصفيق صعق اذنيها، فتحلت بالجرأة وفتحت عينيها. كان جاك ما يزال ممتطيا الحصان محاطا بفارسين آخرين.

www.liilas.com

وكان يحيي الحضور ويبتسم مظهرا شجاعته الخارقة. وبهدوء خرج من الحلبة.

كانت جنيفر ترتجف في كل انحاء جسمها. فابتعدت عن الحلبة وقدماها خائرتان. وعلى بعد خطوات من الحلبة لاحظت وجود مقعد فارغ، فجلست عليه بثقل، ثم أجلست ديانا على العشب تحت قدميها. كانت مضطربة حتى اعمق اعماقها، فريسة غموض كبير وحاولت جهدها ان ترتب افكارها وخصوصا ان تحلل ما حدث الآن، وان تقاوم نفسها بقوة.

انها تحب الرجل الذي كانت تعتقد حتى اليوم انها تكرهه! هذا الرجل المثالي الذي ما زالت ملامحه غارقة في ضبابٍ كثيفٍ، اصبح له الآن وجها وفما ساحرا وانفا رفيعا وعينين سوداوين دافئتين، وخدين لوحتهما الشمس وابتسامة لا تضاهى وتكاد تذيبها. اما صوته فهو منخفض ورنان. وما زالت جنيفر تحفظ في اذنيها صدى كلماته الناعمة التي راح يهمس بها قرب عنقها وحنجرتها تلك الليلة التي امضاها في فيناديل مارا. اطلقت زفرة قوية وشدت يدها على جبينها. كيف كانت جاهلة لحقيقة مشاعرها. وراحت تخلط الكره بالحب؟ منذ متى احبته؟

راحت تبحث في اعماق ذكرياتها. وادركت بذعر انها، منذ اللقاء الاول، شعرت نحوه ببعض الانجذاب وبدأ، ينمو تحت غطاء من العدائية الواضحة. وكان يكفي ان يهدد حياة جاك خطر ما كي تعي جنيفر حقيقة مشاعرها تجاهه. وفي الوقت الحاضر كانت تخاف الا تعرف سعادة الحب من جديد.

ولدى انغماسها في افكارها نسيت مراقبة ديانا التي زحفت على العشب حتى وصلت الى حاجز القش الذي يحيط بالحلبة. ولما ادركت جنيفر الامر، كان قد فات الاوان... فقد اختفت ديانا داخل فتحة صغيرة تطل على الحلبة. ارادت جنيفر الصراخ لكن صوتها ظل داخل حنجرتها. اسرعت نحو الحلبة وراحت تحاول الدخول اليها من وراء الحاجز. اصوات مرعبة صعدت من الحضور. ولدى رؤية المنظر امامها، راح قلبها يخفق بسرعة.

وسط الحلبة كان جاك ممتطياً حصاناً ويواجه ثوراً وحشياً. وفي هذا الاستعراض كان عليه ان يبرهن عن شجاعة ومرونة ليرغم الحيوان ان يلتفت حول بيرق غرز على الجهة الثانية من الحاجز. لكن، في هذا الوقت بالذات، لم

www.liilas.com

يكن المتفرجون مهتمين بمهارة جاك. انما مثل جنيفر، كانوا مذعورين ويحدقون بالطفلة التي تجتاز الحلبة وهي تحبو. لم تكن الطفلة تعي الخطر، انما تريد لفت نظر جاك اليها، لكنه كان منغمسا بمهمته ومديرا اليها ظهره.

اطلقت جنيفر صرخة ثاقبة، فالتفت جاك وصرخ:«يا للهول!»

هذه الصرخة المؤلمة مزقت صمت الموت الذي كان يعم الحلبة، قفز جاك عن الحصان واسرع نحو ديانا التي كانت تزحف بهدوء. وفي هذا الوقت بالذات هجم عليه الثور. اغمضت جنيفر عينيها وفقدت وعيها.

ركض الرعاة الى الحلبة فترك الثور فريسته وهجم بصورة عمياء نحو الجمهور الملتف حوله. تجمع الناس حول جنيفر. وحملها موظفو السيد البير الى المنزل ووضعوها في سريرها. ثم وضعوا على جبينها المناشف المبللة وراحوا يرغمونها على التنفس. ولما عادت جنيفر الى وعيها، اطلقت زفرة أليمة من شفتيها الشاحبتين قائلة:«جاك...»

اجابها بصوت مختنق:«انا هنا، يا حبيبتي.»

بالنسبة الى جنيفر، التي كانت مقتنعة انها

خسرت اعز انسان في حياتها، كان صوته مثل الصدى آت من بعيد... فتحت عينيها بصعوبة ولم تفكر بكبت فرحها، بل ان بريقا قويا مزق الوشاح الذي كان يعتم نظرها.

اضاف جاك بهدوء وهو ينحني فوق سريرها:«انت بحاجة الى الراحة. الصدمة كانت قوية عليك... مازلت ضعيفة. سآتي لأراك بعد قليل.»

«شيلا وسارا احاطاها بحنان، لكن جنيفر فضلت الصمت. حمل جاك ديانا بين ذراعيه وتوجه نحو الباب. وقبل ان يجتاز العتبة التفت مرة اخيرة الى جنيفر، ثم دخل الممر ولم تعد تسمع الا صوت خطواته.

هذاالصوت ظل يرن في اذنيها مطولا حتى غطت في نوم عميق. ولما افاقت بعد ساعات عاد الخوف يهددها. نهضت من سريرها ووضعت روبا عليها وراحت تفكر كم سيسخر منها جاك، لأنه لا يمكنه ان يتجاهل طبيعة عواطفها تجاهه. وهذا سيقوي عزيمته على الثأر منها.

بعد الظهر جاء جاك يتفقدها. كان جالسة امام النافذة المفتوحة على مصراعيها تتمتع بالريح المنعشة المليئة برائحة الزهور. سمعته يدخل، لكنها لم تقم بأي حركة. اقترب منها،

www.liilas.com

فشمت رائحة عطره. لا شك انه استحم لتوه. حدثها بصوت منخفض حتى لا تفاجأ. لم تفاجأ بل ظلت محدقة في المنظر امامها.

«قالت لي سارا انك في تحسن كبير. لكن اذا كنت لا ترغبين بالكلام أعود بعد قليل.»

تنفست جنيفر الصعداء وقالت:«بامكانك البقاء، اذا شئت. اجلس من فضلك.»

«جلس على طرف النافذة في مواجهة جنيفر. توترت ورفضت ان تنظر اليه ولم ترفع نظرها الى اعلى من عنقه. ضغطت على معصميها غارزة اظافر يديها.

«لا شك انك شعرت بصدمة كي تفقدي وعيك هكذا... لم تصب الطفلة بأي اذى، اليس كذلك؟»

وبذعر، ادركت انها اهتمت بمصير جاك اكثر من ديانا. ارتعشت، فأسرع جاك الى القول:«لكن ستصابين ببرد! هذا الروب خفيف! اتريدين شالا سميكا اضعه عليك؟»

كتفت ذراعيها فوق صدرها وقالت:«كلا، شكرا. لا شيء سوى اني اتذكر ما حدث بعد ظهر اليوم... اخافني الحيوان بضخامته.»

«لست وحدك من فكر هكذا.»

«انت تعرف، اليس كذلك؟ لماذا تخفي علي...»

اقترب منها بسرعة وسألها:«ماذا تعنين بالضبط، يا حبيبتي؟ ماذا بامكاني ان اعرف؟»

«انت تعرف... اني احبك.»

ساعدها جاك على النهوض وجذبها نحوه وقال:

«جنيفر، اليس هناك شيء آخر يجب عليّ ان اعرفه؟»

ارخت رأسها على كتفه وراحت تسمع دقات قلبه بوضوح، انه واثق من نفسه، راح ينتظر جوابها. لقد افصحت له عن حبها لكنه لم يكتف بذلك... يريد منها خضوعا كاملا! رفعت جنيفر ذقنها وصرحت قائلة:

«بطريقة أو بأخرى، عرفت اني كذبت عليك. ديانا ليست ابنتي، بل شقيقتي. اردت ان اصيب غرورك فاستعملت هذه الخدعة... اني آسفة...»

«ايتها الماكرة الصغيرة، انت حقاً آسفة.»

انحنى فوقها وحدق في عينيها وقال:«آه، يا حبيبتي، لقد... تعذبت كثيرا. لكن كيف باستطاعتي الا ان اسامحك، يا حياتي؟... لا يمكنني ان اعيش من دونك.»عانقها وعانقته ولم

www.liilas.com

تصدق مدى سعادتها. همس جاك:«اني احبك. كنت كالمجنونة ليلة امس، وخوفا من ان استسلم لنزواتي، كما حدث لي في فينادیل مار، امتطيت جوادي ورحت اهيم في الصحراء.»

كنت الدموع تنهمر من عيني جنيفر وهو يعانقها بشغف وحنان. ثم قال:

«هل تسامحينني لأني جعلتك تستسلمين لي بالقوة؟ لقد تصرفت بسوء. انت التي كنت عذراء...»

اذن، اكتشف سرها منذ ذلك اليوم. لامت سذاجتها لانها اعتقدت ان عدم خبرتها بالامر ستمر من دون ان ينتبه لها. تعلقت جنيفر بعنقه لتقنع نفسها انها لا تعيش حلما بل حقيقة، ثم خبأت وجهها في صدره.

«اذا لماذا ارغمتني على التصريح لك، ما دمت تعرف ذلك؟»

ما زال هناك سؤال يحيرها فتحلت بالشجاعة وسألته بخجل:«كنت صريحة معك وارجو ان تكون صريحا معي. ما هي نواياك تجاه كايت؟ هل ما زلت تراها؟ أم تود ذلك؟»

دفعها بلطف واستغرب قائلا:كايت؟ في حياتي تعرفت الى كثيرات مثلها. لكنهن كن عابرات،

كظلال في الليل.انت وحدك، يا حياتي، عرفت ان تحتفظي بي، والى الابد.»

تأثرت جنيفر بكلامه وظلت صامتة. ثم ارادت ان تناوشه فقالت:

«هل كان يزعجك حقا لو كانت ديانا... ابنتي؟»

«طبعا، كنت اموت غيظا.» وعانقها بحب ولطف.

بعد ساعات عديدة، كانا واقفين امام باب الشرفة ينظران الى القمر الذي كان يضيء المنزل. اطلقت جنيفر زفرة ارتياح فقال جاك:

«اذا كنت ترغبين ان اكف عن عناقك، فسأفعل. اني اشعر بأني قادر ان اعيل عائلتي الصغيرة، حتى ولو اضطررت الى البدء من الصفر.»

ابتعدت جنيفر قليلا ثم همست:«وديانا... هل تقبل ان تكون جزءا من هذه العائلة؟»

«احب هذه الطفلة الجميلة حبا كبيرا وسأظل احبها مثل اولادي. لكن لم تردي على سؤالي، يا حبيبتي؟ هل تريدين برهان حب؟ سوف اذهب لرؤية جدي واقول له اني اتخلى عن جميع حقوقي في المزرعة.»

قالت له بلطف:«كلا. لنفكر بجدك ايضا... فهذا القرار سيحطم قلبه. ومن جهة ثانية...»

www.liilas.com

توقفت عن الكلام لأن جاك وضع يده تحت صدرها من جهة القلب واحس قلبها الذي كان يخفق بسرعة هائلة. لكنها اكملت جملتها:« ... النسر بحاجة الى مساحة كبيرة ليبسط جناحيه في تحليق قوي. سنبني حياتنا في هذا الوادي، وادي فردوسنا السعيد.»

www.liilas.com

تمت

مكتبة ليليس